مجيد طوبيا

غرائب الملوك ودسائس البنوك

حكايات حول قناة السويس تتناول: السلاطين المساطيل وهجوم الأساطيل وبعض الأعاجيب لأصحاب الجلاليب



غرائب الملوك ودسائس البنوك

الكتاب : غرائب الملوك
ودسائس البنوك

المؤلف: مجيد طوبيا

الناشر : دار إيجي مصر للطباعة والنشر

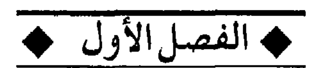
تليفون : ٥١٦١٠٦١

الغلاف والرسوم الداخلية:
الفنان جودة خليفة

الإخراج : حامد العويضى

المحتويات

صفحة



حكايات أولية عن بعض ذئاب الماضي

يحكى أنه فى سالف العصر والأوان، وبالتحديد فى القرن التاسع عشر من الزمان، وبعد أن استفاقت أوروبا من ظلمات الجهل اللعين وحررت عقلها من سطوة تجار الدين.. يحكى أن علماء الفرنجة كانوا قد نشطوا يدرسون الانسان والأرض والسماء، لدرجة أن أحد هؤلاء اكتشف أن للبخار قوة، وأن هذه القوة يمكنها أن تدير آلة، وأن هذه الآلة يمكنها أن تنتج سلعا وتحرك القطارات وتسير السفن.. فحدثت تلك الثورة الصناعية التى كانت طفرة للانسان لم تكن معروفة من قبل، وقوة عجيبة تضاف اليه..

ويحكى أيضا أن تلك الجزر الجرداء المسماة انجلترا كانت هى أسبق الدول فى هذا المضمار، مما ضاعف من انتاجها السلعى

بحيث فاق بكثير متطلبات سوقها المحلى، فصار لزاما عليها أن تبحث عن أسواق أجنبية تبيع لها الفائض وتستجلب منها الخامات الأولية اللازمة لصناعاتها..

ومن أجل هذا الهدف خرجت بوارج الانجليز الى كل بحر وكل محيط، لتلقى مراسيها على شواطىء الدول الآمنة والنائمة فى نعاس التخلف.. يبدأ الأمر بالتجارة البريئة وينتهى بالاستعمار الصريح، فتسللت الى شبه القارة الهندية بشركة اسمها شركة الهند الشرقية ثم حولتها بسطوة السلاح الى درة المستعمرات فى تاج الامبراطورية البريطانية، التى صارت لا تغرب عنها الشمس لانتشار أراضيها بين الغرب والشرق..

ويحكى أيضا أن الذئب الانجليزى نظر الى الشرق الأوسط، فرأى مصر واقعة على طريقه المؤدى الى درته الهندية، ورآها تزرع القطن اللازم لمصانع نسيجه، فطمع فيها وحدث نفسه قائلا:

ـ هذه ولاية عثمانية، تدفع الجزية للسلطان التركى المهيمن باسم الدين، مع أنه يقتل رجالها ويسبى نساءها وصبيانها، وهو فى الحقيقة لم يعد سوى عقل مشلول، لم يبزغ له علم مثل علمى ولم تتطور له صناعة مثل صناعتى، فهو ذئب مريض واهن القوى متساقط الأنياب وقد قربت نهايته..

ثم كشر الذئب الانجليزى عن أنيابه وأكمل حديثه لنفسه:

ـ عندمـا يـجـىء الـوقت المنـاسـب سـوف أنقض عـلـى هذه الدولة المصرية كما انقضضت من قبل على الدولة الهندية..

ومن حسن حظه أن تركيا كانت فى حرب طاحنة وطويلة مع روسيا القيصرية أنهكت قواهما معاً، وان أمريكا كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية، فلم يعد بالغابة الأرضية من يناوئه فى الشرق الأوسط سوى فرنسا..

ويحكى أيضا أن نابليون الفرنسى كان قد جاء قبل ذلك ـ وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ـ الى مصر يريد غزوها.. وان حكومة باريس كانت قد وجهت اليه ستة توجيهات سرية، كان ثالثها ينص على ان يقوم: "بشق برزخ السويس واتخاذ الوسائل الضرورية لضمان استيلاء الجمهورية الفرنسية استيلاء كاملا على البحر الأحمر وامتلاكه"..

وكانت انجلترا قد استولت على رأس الرجاء الصالح مؤمنة بذلك طريقاً جديداً سهلاً ومأموناً الى الهند درة التاج البريطانى.. ومن هنا جاء التفكير الفرنسى بالاستيلاء على مصر لتتخذ منها قاعدة تهدد بها بريطانيا فى الهند، فمهما كانت قوة البوارج الانجليزية فإن دورانها حول القارة الافريقية يجعلها غير قادرة على كبح جماح البوارج الفرنسية الزاحفة الى الهند عن طريق البحر الأحمر..

ويروى عن المهندسين الفرنسيين القادمين مع الحملة عام

١٧٩٨ أنهم لم يضيعوا وقتهم، بل بدأوا فى يناير من عام ١٧٩٩ ـ فى دراسة تنفيذ التوجيه الثالث السرى لحكومتهم، ومع نهاية نفس العام تقدموا بتقريرهم الى نابليون ذاكرين استحالة حفر البرزخ المطلوب، لاعتقادهم أن مستوى المياه فى البحر الأحمر يرتفع عن مستواه فى البحر الأبيض المتوسط بنحو ٣٣ قدما.. وكانت غلطة منهم سببها عدم دقة أجهزة قياسهم فتأجل حفر القناة..

وانتهى الأمر بالحملة كلها الى الفشل تحت ضغط مقاومة أهل مصر ومعارضة انجلترا، فانسحب نابليون بونابرت من مصر، بعد أن تنبه الانجليز الى نواياه فسارعوا باحتلال جزر البحرين فى الخليج العربى وعدن ومسقط والكويت وقطر وشواطىء عمان فيما سموه بالمحميات البريطانية عند مدخل البحر الأحمر من أسفله.. ثم راحوا يتحينون الفرص للانقضاض على أعلاه، أى على مصر التى قال عنها نابليون: "مصر لا توجد بلاد مثلها تتيسر لحكومتها وسائل المراقبة والسيطرة عن كثب بواسطة النيل"..

◆ الفصل الثانى ◆

فصل من حكاية نقيب الأشراف.. والألبانى.. والباب المفتوح

عندما غـادر الفرنسيون مـصر عادت فلول المماليك تدير البلاد لحساب الباب العالى العثمانى.. وكان هؤلاء فى الأصل عبيدا ويمتلكون بالمال ويستخدمون كحرس للسلاطين، وكانوا خليطا من الاتراك والجراكسة والمغول والروم والقوقاز يشتريهم السادة بقصد استمرارهم فى حكم البلاد عن طريق حكومة أقلية عسكرية.. وعلى هذا فقد كانوا أرّقاء بحكم النشأة والمصدر، متعطشين للدماء بحكم التربية والاحتراف.. فلما زاد عددهم استولوا على الحكم، وراحوا يستأسدون على الناس المسالمين بالنهب والرشوة والجلد والخوزقة حتى تناقص تعداد السكان بسببهم وبسبب الأوبئة والمجاعات الى نحو المليونين والنصف فقط، وكانوا يقدرون أيام الفراعنة بنحو سبعة ملايين تقريباً.

وعند أول محك حقيقى للقوة انهار هؤلاء المماليك وتشتتوا أمام الغزو العثمانى على يد سليم التركى، ثم دحر نابليون

بقاياهم بحملته الفرنسية، فلما انسحبت عادت فلولهم تريد أن تبطش من جديد.. لكن الظروف كانت قد تغيرت، ومقاومة الناس للفرنسيين كانت قد أعادت الثقة الى نفوسهم فناوؤا المماليك..

ويحكى أنه كان بالقاهرة رجل ألبانى اسمه محمد على، من مواليد مرفأ "قوله" التابع الآن لليونان. كان يتزعم جيشا من مواطنيه الألبانيين تعداده عشرة آلاف رجل، وكان أميا لكنه داهية ودموى من غير رعونة أو اندفاع وكان قد خدع المصريين بالتظاهر بحبهم وبالدفاع عن مصالحهم.. لذلك توجه اليه الناس والمشايخ بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف، وطلبوا منه ان يكون واليا عليهم بشروطهم، وكان ذلك فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥ عندما ارسلوا الى الوالى التركى قرارهم بعزله، فرفض قائلا:

ـ أنا معين من قبل سلطان الدولة العثمانية، فلا أعزل بأمر الفلاحين المصريين..

لكن عمر مكرم رد قائلا:

ـ ان الطاعة المفروضة لأولى الأمر معناها الطاعة للعلماء والسلطان العادل، وجرت العادة أن أهل البلد يعزلون الولاة الظلمة، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يخلعونه ويعزلونه..

وتم للناس فرض محمد على حاكماً لمصر، الأمر الذى رضخ له العثمانيون على مضض، وصار محمد على هو الخلف المنطقى لنابليون، وكان متأثراً به تأثراً شديداً.. واستهل الألبانى حكمه بأن أجهز على المماليك جميعهم فى مذبحة القلعة الشهيرة، ثم استدار ينكل بقوى الشعب ويشترى رضا الكبراء بالهبات الكبيرة، حتى استتب له الأمر حاكما مطلق اليد..

وعلى الفور أعلن احتكاره لكافة الأطيان، وراح يجهز جيشاً قوياً من الفلاحين أنشأ له المصانع اللازمة. وأرسل العديد من البعثات الى الخارج فلمع رفاعة الطهطاوى.. وبعد أن تم للألبانى كل ذلك أعلن الحرب على الباب العالى، وحررت الجيوش المصرية الشام بقيادة ابنه بالتبنى ابراهيم باشا ـ صاحب تمثال ميدان الأوبرا القديمة ـ ثم راحت تدق أبواب العاصمة العثمانية نفسها، وعند ذلك تدخل الذئب الانجليزى مع حلفائه وحاربوا جيش مصر وكسروه، فانكمش محمد على فى ولايته على مصر راضخا لسيادة السلطان التركى الاسمية ولدفع الجزية السنوية له.. وقد سر من ذلك الذئب الانجليزى وحدث نفسه قائلاً:

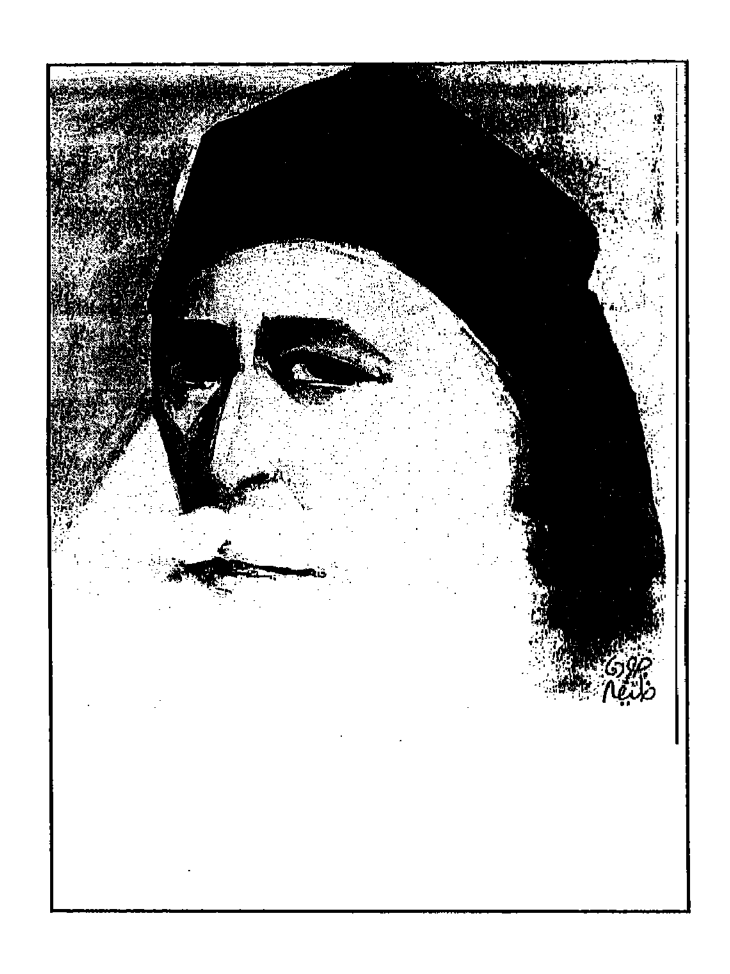
ـ هأنذا أفهمت السلطان التركى أنه مدين ببقائه لى، وأفهمت ذلك الألبانى الأمى الطموح أننى لا أريد فى مصر دولة قوية مستقلة..

ومن هنا كان محمد على يرفض فكرة القناة حتى لا يعطى الأوربيين مطمعاً جديداً ــ وكانت القياسات الجديدة قد اثبتت خطأ علماء الحملة النابليونية ــ وعندما حاولت مجموعة المهندسين الفرنسيين المشتركين فى بناء القناطر الخيرية اقناعه بحفر القناة رد قائلاً:

ــ إنى لو فتحت القناة لخلقت لمصر بوسفورا كبسفور الدولة العليا (يقصد تركيا).. وكما أن البوسفور سبب فى مشاكلها فأن بلادى المطموع فيها أصلاً سوف تصبح بسبب القناة مرسحا للمطامع السيئة..

وعلى غراره سار خلفاؤه ابراهيم وعباس الذى كان يكره الأجانب.. والى أن جاء ثالث الأمراء الباشوات واسمه سعيد وكان يحب الأجانب.. وكان احتكار الدولة للتجارة والصناعة والزراعة قد سارع الى الانهيار.. وكان الذئب الانجليزى قد فرض ماسماه بسياسة الباب المفتوح، ومعناه ان تشترى دولة مغلوبة على أمرها مثل مصر بضائعه بأعلى الأسعار، وأن تبيعه قطنها الخام بأرخص الأسعار، استمرارا لاستراتيجية: التجارة فى البدء ثم الاستعمار كنتيجة..

ولم يقاوم سعيد باشا، وفتح الباب على مصراعيه.



◆ الفصل الثالث ◆

فصل من حكاية ابن القنصل .. والأمير وبداية القروض

وكان الأمير سعيد فى صباه سمين البدن، وكان أبوه يكره السمنة فمنعه من أكل النشويات، لكنه كان مغرماً بالمكرونة، فكان يهرع الى القنصلية الفرنسية حيث يلتهم الأطباق الشهية منها مع نجل القنصل الذى يدعى "فرديناند ديلسبس".. ثم فرق الزمن بينهما بعودة الفرنسى الى دياره..

وعندما تولى الأمير الحكم، التأم شمل الصديقين مرة أخرى.. وفى رحلة صيد فى الصحراء الغربية عرض مشروعه بحفر قناة السويس على سعيد باشا، الذى لم يشأ أن يكسر بخاطر صاحبه فوافق، وأصدر المرسوم اللازم لهذا بديباجة هى أقرب الى العشق منها الى الود قال فيها: "الى صديقى المخلص الكريم المنبت، العالى المقام، المسيو فرديناند ديلسبس.. وقد خولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتأليف شركة عامة لحفر برزخ السويس واستغلال القناة التى ستصل بين البحرين الأبيض والأحمر.."

وبموجب هذا المرسوم قدّم سعيد الى هذه الشركة جميع الأراضى التى تمر بها القناة والتى على جانبيها مجانا، مع اعفائها من كافة الرسوم الجمركية والعوايد، ومنحها حق استخراج مايلزمها من مواد البناء من المحاجر الأميرية مجانا، وانفرادها بدخل القناة لمدة ٩٩ سنة، كما منحها حق حفر ترعة مياه حلوة من فرع النيل الى منطقة القناة للارتواء منها دون مقابل، بل وأضاف أنه إذا أراد أصحاب الأطيان المجاورة لهذه الترعة رى أراضيهم منها فعليهم أن يدفعوا ثمن هذه المياه للشركة الأجنبية..

كل هذه الامتيازات أعطاها سعيد لصديقه دون مقابل، وربما من أجل خاطر صداقة المكرونة اللذيذة.. ولم يكتف بهذا، بل عاد يلحق المرسوم السابق بمرسوم آخر تتعهد فيه مصر "بتقديم العمال اللازمين لحفر القناة طبقا لحاجة العمل".. وكان معنى هذا تسخير عشرين ألف فلاح فى الحفر مقابل مبالغ هزيلة لم تدفع لهم على الاطلاق، وهذا يعنى بالتالى حرمان الأراضى الزراعية من جهد ستين ألف عامل، إذ كان عشرون ألفا يعملون على الدوام فى حفر القناة بينما عشرون ألفا غيرهم يجهزون للحلول محلهم، وعشرون ألفا ثالثة انتهت مدتهم وهم على أهبة العودة وقد انهكتهم سخرة

السلاسل والكرابيج، وحكى أنهم كانوا يظلون عدة أسابيع فى قراهم وهم غير قادرين على العمل، وان المئات منهم تساقطوا قتلى تحت ضرب السياط وضربة الشمس والأوبئة، فكانوا يدفنونهم من قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة..

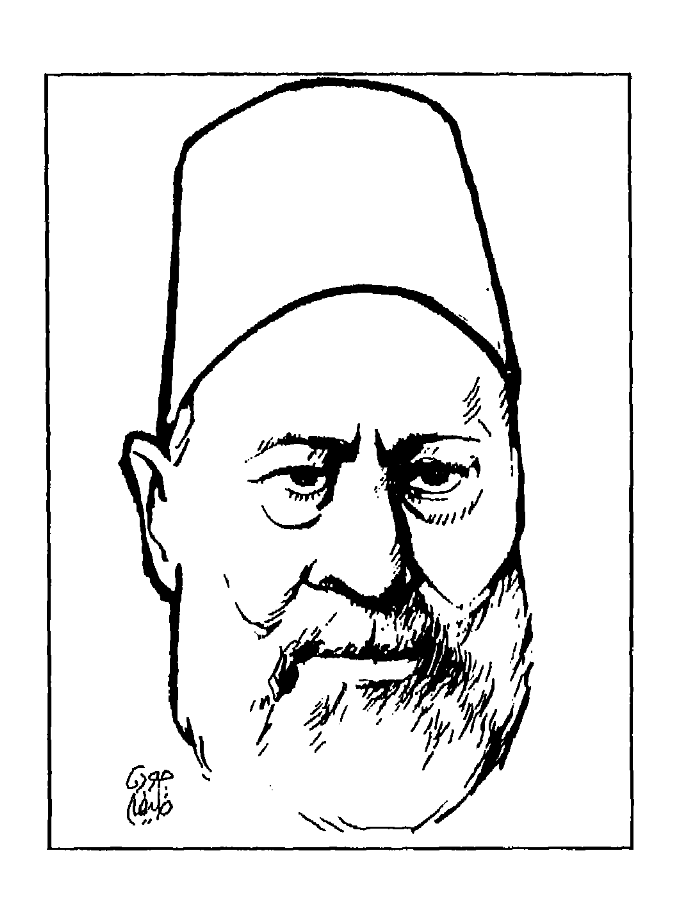
ولم يكن هذا هو كل ماقدمته مصر، فعندما طرح ديلسبس أسهم الشركة للبيع تبقى منها مايقرب من خمسيها، وأصبح المشروع كله مهددا بالالغاء، وعند ذلك سارع الأمير الى انقاذ شركة ابن القنصل فقام بشراء هذه الأسهم على حساب الخزانة المصرية، ولم يكن فيها هذا المبلغ فاستدانه على أن يسدده على أقساط ذات فوائد مركبة عالية، عجز عن سدادها.. فتكالب عليه الماليون الأجانب يتفننون فى سلب المال المصرى بأساليب غاية فى العجب، الى درجة أنه ذات يوم دخل أحدهم على سعيد باشا وكانت نافذة القاعة مفتوحة، فصاح الوالى فى خادمه:

ـ أغلق هذا الشباك بسرعة فلو أصيب هذا السيد بزكام فلسوف يطالبنى بتعويض لا يقل عن عشرة آلاف فرنك!!

ومات سعيد الذى أحب الأجانب وقد ترك البلاد مدانة لهم بمبلغ كبير يزيد عن اجمالى ايرادات الميزانية العامة!!.. غير أن

فى عهده سمح بترقية الضباط المصريين، كى يحد من عربدة الضباط الأتراك والشراكسة.. وبهذا تمكن مصرى صغير اسمه أحمد عرابى من الوصول الى رتبة قائمقام وكان قد دخل الجيش برتبة نفر عادى..

وجاء من بعده اسماعيل باشا الذى كان أكثر منه سخاء..



◆ الفصل الرابع ◆

فصل من حكاية "خيفــا" الذى دفع الرشوة

أول ما فكر فيه اسماعيل هو أن يشترى لنفسه من الباب العالى لقبا فخما يميزه عن باقى الولاة الآخرين.. وفى البداية أراد أن يلقب نفسه بالعزيز لكن عقبة بسيطة حالت دون ذلك، إذ كان السلطان التركى نفسه يسمى عبدالعزيز فكيف يلقب أحد ولاته بالعزيز؟!.. وأخيرا عثر على أمنيته فى كلمة خديوى، وهى صفة مشتقة من كلمة "خيفا" وهى اسم فارسى من اسماء الله، تعنى الربانى أو الالهى.. ولما كان الأتراك والمصريون لا يعرفون الفارسية فقد كان للقب الجديد وقع السحر لما فيه من غموض.. ولم يفز إسماعيل به بالمجان، بل برشاوى ضخمة وزعت على السلطان وحاشيته، منها يختا بخاريا عالى الثمن و"طاقما" للمائدة مرصعا بالماس ومبلغا كبيرا من المال.. بالاضافة الى زيادة الجزية السنوية المفروضة على مصر مقابل أن تصبح هذه الخديوية وراثة لأولاده من بعده!.

ولعل تشبثه بهذا اللقب الوهمى يلقى بعض الأضواء على شخصيته.. وكان غربى الثقافة مبهورا بالحضارة الأوربية، ومبذرا انهمك فى رحلات باذخة الى بلدان الغرب، وفى حشد بيوته بالنساء والعبيد والجواهر والتحف والأثاث المستورد من فرنسا وغيرها.. كما اندفع فى غزوات لا طائل من ورائها وفى مشاريع كثيرة دون أن يكون لديه المال الكافى لها فنفذ معظمها بالاستدانة، مما ضاعف من قيمة القروض ومن فوائدها، فتسبب بعد زمن قليل من توليه الحكم فى القفز بالدين القومى المصرى من ثلاثة ملايين جنيه الى مايقرب من المائة مليون وهو مبلغ ضخم جدا فى ذلك العصر..

ومع قرب افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمير ١٨٦٩ اتسمت استعداداته بالاسراف الشديد، فقد جعل المهرجانات والاحتفالات تستمر أربعة أيام فى العاصمة وعلى القناة ذاتها، كأنها ليالى من ألف ليلة وليلة.. وفى القاهرة أنشأ أول دار للأوبرا فى الشرق وافريقيا، وعهد الى الموسيقى الايطالى الشهير "فيردى" بوضع "أوبرا عايدة" لحفلة الافتتاح (وان كانت الأوبرا لم تعرض بمصر الا فيما بعد لظروف متعلقة بفيردى).. كما أمر بتسليط أنوار الماغنسيوم البراقة على الأهرامات.. وأقام فى بورسعيد ثلاثة سرادقات، واحدا لأرقى الضيوف

والثانى لعماء المسلمين والثالث للمسيحيين.. وأعد ذخيرة من الصواريخ النارية لتحية الافتتاح، واستدعى من فرنسا وايطاليا ٥٠٠ طباخ و١٠٠٠ خادم لتقديم الأطعمة لستة آلاف مدعو وفرت لهم أجود أنواع الخمور وأغلى الأطعمة دون حساب.. وكان من بينهم معظم أباطرة وملوك وأمراء أوروبا ونبلائها وسفرائها، إلى جانب قائمة طويلة من مراسلى صحف خاملة الذكر كان يشتريهم من أجل مدحه باللغات الأجنبية.. وفى نفس الوقت تجاهل دعوة السلطان التركى إذ كان ينوى اعلان انفصاله عنه لكن الظروف الدولية لم تساعده..

وفى الصباح المحدد للافتتاح بارك القناة رجال الدين الاسلامى والأرثوذكس اليونان والأقباط الكاثوليك.. وأطلقت الأعيرة النارية والصواريخ.. وعزفت عشرون فرقة موسيقية عسكرية.. وخلال دخان البارود افتتحت الامبراطورة الفرنسية "أوجينى" من فوق سطح اليخت الامبراطورى ايجل ــ أى النسر ــ القناة.. وتبعها اسماعيل على يخته "المحروسة" وسيفه الملكى يتألق بالجواهر، ثم امبراطور النمسا وعائلته، فخمس مدرعات انجليزية وسفينة حربية روسية وحوالى ٧٠ سفينة بخارية وشراعية..

عادت الامبراطورة أوچينى إلى فرنسا، وقد أهداها إسماعيل

سريرا أعمدته من الفضة الصب.

ومن ميزانية الدولة وبمزيد من القروض استصلح أكثر من مليون فدان أضافها الى ممتلكاته الخاصة بحيث صار يملك خمس مساحة الأرض المنزرعة كلها، وكى يستصلح هذه الأرض سخر الفلاحين بالسياط فى حفر الترع وفى مد الخطوط الحديدية التى زادت من ٢٤٦ الى ٩٦٠ ميلا كى يتيسر نقل محاصيله الى موانىء التصدير، وفى مد شبكات التلغراف الحديثة كى يتحكم فى ادارة هذه المساحات الشاسعة.. ثم أدخل زراعة القصب فى أراضيه وأنشأ من أجلها مصانع السكر..

غير أنه بالاضافة الى ماسبق شيد أحواض السفن والمنارات على شاطئى البحرين الأبيض والأحمر، وسير خطوط الملاحة، وقام بتوسيع شوارع القاهرة وتزيينها واقامة المتنزهات بها، ووضع نظاما ثابتا للانارة ونقل المياه.. وقفز بعدد المدارس الحديثة من ١٨٥ الى ٤٨٧١ مدرسة..

وقد نظر الذئب الانجليزى بعين العطف الى جميع الانشاءات المتعلقة بالرى والزراعة وحدث نفسه قائلا:

ــ لطيف من هذا الخديوى أن يهيئ مصر لى كمزرعة خصوب ميسرة المواصلات، وسوف أعمل على توريطه فى المزيد من

الديون حتى أفوز بكل هذا.

لذلك لم يكن يستغرب أن المرابين الانجليز والفرنسيين كانوا يتزلفون الى اسماعيل ويتوسلون اليه كى يقترض منهم المال بأعلى الفوائد المركبة، وانزلق هو الى الحد الذى عجز فيه عن سدادها.. وعند ذاك انقلبوا الى وحوش تطالب برباها فى وقاحة أرغمته الى أن يبيع لانجلترا نصيب مصر من أسهم القناة والبالغ نسبتها خمسى مجموع الأسهم، وبسعر ينقص عن سعرها القديم وكانت وقت البيع تزيد عنه بكثير، فى صفقة جائرة سماها رئيس الوزراء الانجليزى بصفقة العصر!..

ومنذ ذلك الوقت اعتبر الانجليز أن قناة السويس ملكا لهم، وان من حقهم احتلال الأرض التى تمر بها وراحوا يجهزون لذلك!!.. ولم يتبق لمصر من "مولد" القناة سوى نسبة ١٥ فى المائة من صافى الدخل بعد الافتتاح، فهل يحافظ صاحب السمو الخديوى اسماعيل باشا عليها؟..

◆ الفصل الخامس ◆

فصل من حكاية تجارة العبيد ومن حفل الرقص التنكري

فى ذلك العهد كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة، وكانت لها أسواق ثابتة ومواعيد محددة، وعُرف متفق عليه وتقاليد مصانة.. وكانوا يبيعون النساء والصبية، المرأة البيضاء والصبى الأبيض أعلى سعرا من الجارية السوداء، والبضاعة مضمونة لمدة ثمانية أيام، ومن حق العميل أن يعيد من اشتراها فى خلال مدة الضمان ان اكتشف عيبا ما فيها.. وكان النخاسون ــ أى تجار العبيد ــ يجلبون هؤلاء من شرق أوروبا وبعض مناطق آسيا ومن جنوب السودان والمناطق المتاخمة.. وكانت معظم المناطق الأخيرة تعد مجهولة بالنسبة لخرائط العالم المتمدين، كانت أفريقيا هى القارة السوداء وأرض الغموض والسحر والتوحش والأوبئة..

ولما كان تدوين هذه الخرائط يسهل على هذا "العالم المتمدين" احتلال أرض السحر والغموض هذه الغنية بالخامات البكر، لذلك فقد شجعت الحكومة الانجليزية رحالتها المغامرين على التوغل فى أحراش جنوب السودان لاكتشاف منابع النيل.. وكان من بين هؤلاء رجلا اسمه "صمويل بيكر" اكتشف بحيرة سماها بحيرة "ألبرت" جعلت صيته يبلغ أسماع الدنيا..

وكان تاجر الرقيق يجمع من حوله ـ على حد قول بيكر ـ أكثر من مائة رجل من الأعراب والأوباش الفارين من العدالة، ويزودهم بالبنادق، ثم يشترى بعض الخرز والزجاج ويتوغل بهم بالمراكب قاصدا الى أحد رؤساء القبائل الزنوج الذى يكون قد عقد معه رابطة صداقة، وبعد أن يهديه الخرز والزجاج، وبعد أن يعرف الرجل مدى قوة بنادقهم على الفتك، يدلهم على الطريق الى قبيلة أخرى مجاورة يكون على عداوة معها.. وقبيل الفجر بنصف ساعة يتسلل هؤلاء حيث يشعلون النار فى أكواخ القبيلة النائمة مطلقين وابلا من الرصاص، وينهض البؤساء النيام مذعورين ويقتل منهم من يقتل، ويتم أسر النساء والصبية الأصحاء حيث يقيدون أرجلهم بالسلاسل الحديدية.. وكثيرا مايحدث بعد ذلك أن ينقلب تجار العبيد على

القبيلة المتحالفة معهم ويغدرون بها ويفعلون فى أفرادها نفس الشىء..

وقد حضر هذا الرحالة حفلات افتتاح قناة السويس كمترجم نظرا لمعرفته بمصر وباللغة العربية.. وفى حفل رقص تنكرى أقامه ديلسبس تقدم الخديوى من الرحالة المتنكر خلف قناع أفريقى، وعرفه بنفسه ثم انتحى به جانبا حيث عرض عليه قيادة حملة عسكرية لضم أعالى النيل لمصر تحت زعم محاربة الرق والقضاء على تجارة العبيد (وهو زعم شبيه بزعم الانجليز فيما بعد من انهم كى يضمنوا تسديد مصر لديونها فعليهم أن يحتلونها!!).. وقد قبل بيكر هذا العرض مقابل راتب سنوى ضخم قيمته ١٠,٠٠٠ جنيه استرلينى بسعر ذلك العهد، وجاء لتنفيذ الحملة ومعه زوجته الفاتنة وعدد من المساعدين، وأخذ معه الجنود المصريين ــ وقد فوض بالسلطة المطلقة ــ وبواسطتهم تم له ما أراد..

والغريب أن رأى بيكر ــ محرر العبيد المزعوم هذا ــ فى الافريقى هو: "أنه قد يكون فى طفولته متفوقا على قرينه الأبيض فى سرعة النمو الذهنى، ولكن العقل لايمضى فى نموه، فهو يبشر بالازدهار ولكنه لا ينضج.. ومهما كان استنكارنا لنظام الاسترقاق، فانه قد ثبت أن الزنجى لا يقدّر نعمة الحرية،

ولا يبدى أتفه مشاعر العرفان لليد التى تحطم أغلاله"!!.

والغريب أيضا أن اسماعيل نفسه كان من كبار مقتنى العبيد، وكان الفلاحون المستخدمون فى ضياعه الشاسعة وجحافل الخدم فى قصوره أحرارا فى الظاهر عبيدا فى الواقع.. بل انه كان قد منح بعض النخاسين عقودا رسمية تخولهم حق اصطياد العبيد من أعالى النيل!!

وبالطبع فان سير صموئيل بيكر لم يوافق على القيام بمهمة فتح أعالى النيل هذه إلا بعد أن أخذ موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية.. وفى هذه المرة أيضا نظر الذئب الانجليزى الى هذه الغزوة بعين العطف، وحدث نفسه قائلاً:

ـ لطيف جدا هذا الخديوى، فعندما أحتل أنا مصر أكون قد احتللت السودان دون أن أنفق بنسا واحدا..

وتبعت هذه الحملة حملات أخرى بقيادة انجليز برواتب ضخمة، أبيد فيها الآلاف من الجنود المصريين ـ شاهد أحمد عرابى شوطا منها ـ وأنفقت عليها النفقات الباهظة مما كانت سببا فى زيادة الديون الأوروبية ذات الفوائد الربوية، بحيث اضطر اسماعيل الى بيع حق مصر فى نسبة الـ ١٥ فى المائة من دخل القناة وبأبخس الأسعار، وكان يظن أن فتح أعالى النيل سوف يضيف اليه دخلاً كبيراً!!.. وبذلك تكون مصر قد خرجت

من مولد القناة بلا حمص، بل ومديونة خاصة بعد عملية الاحتيال الفظيعة التى ارتكبها ديلسبس فى حق مصر، وسميت وقتها بأكبر عملية احتيال ترتكب فى القرن التاسع عشر والذى يسمى بقرن الاستعمار..

فماذا دبر هذا السيد الفرنسى؟!

◆الفصل السادس◆

بعض المطالب العادلة لأوروبا الفاضلة ..

أراد اسماعيل فى بداية عهده أن يلغى من عقد شركة القناة البند الذى يلزم مصر بتوريد العمال المصريين لحفر القناة بالسخرة، وقد ظلت الشركة تماطل لمدة خمس سنوات ثم أعلنت فجأة رضوخها الظاهرى..

وتحت ضغط الانجليز طالب الخديوى بالغاء البند الخاص بالترعة الحلوة التى كانت الشركة تحفرها، مع الغاء حقها فى الأرض الصحراوية الواقعة على ضفتيها، وكانت انجلترا تخشى استفحال النفوذ الفرنسى فى مصر.. وقد تظاهرت الشركة بالموافقة على هذا أيضا.. وفى الحقيقة لم يكن ديلسبس يوافق بقدر ما كان ينصب ويعد شركا فظيعا للأمة الضعيفة، إذ فوجئت مصر بشركته تطالب بالتعويضات عما سبق، فقد قالت إن الغاء السخرة سيرغمها على استئجار العمال الأجانب وعلى شراء كراكات وهذا سوف يكلفها ٣٨

مليون فرنك فرنسى على مصر أن تتحملها!.. وقالت إنها أنفقت على الترعة الحلوة مبلغ ١٠ ملايين من الفرنكات على الحكومة المصرية أن تعوضها عنها!!.. وطلبت ثمنا لضفتى الترعة ــ وهى أرض صحراوية منحت لها بالمجان ــ طلبت ثمنا لها ٣٠ مليون فرنكا أخرى!!.. ولم تكتف بهذا بل قالت: انها لو أتمت الترعة الحلوة فأنها كانت ستبيع المياه للمزارعين على الضفتين، وكانت ستأخذ رسوما من المراكب التى سوف تستخدمها، وقدرت كل ذلك بمبلغ متواضع مقداره ٦ ملايين فرنك، بالاضافة الى ان هذه الترعة كان سينمو بها السمك وصيده موردا خصبا خسرته!!..

ولهذا طالبت الشركة بمجموع هذه "التعويضات العادلة" وكانت ٨٤ مليون فرنك.. وانزعج اسماعيل ورفض، ثم قبل التحكيم لدى امبراطور فرنسا و نابليون الثالث زوج أوچينى، وكان "فاضلا جدا" بحيث أقر جميع هذه المطالب "العادلة جدا".. وكان ديلسبس يمت اليه بصلة نسب!!

كانت أكبر فضيحة أخلاقية لأحط عملية احتيال يشترك فيها ديلسبس وأصحاب البنوك الأوروبيين مدعمين بامبراطورهم الذى يأتى ترتيبه فى سلسلة النابليون رقم ٣.. ولم يكن أمام مصر المنكوبة سوى الرضوخ.. بل وأكملت على نفقتها الخاصة اتمام حفر الترعة الحلوة وصارت مرافق شركة

ديلسبس ترتوى منها بالمجان!!

وأشهر أصحاب الديون إفلاس الخديوى اسماعيل باشا ولقبوه بالمليونير المفلس، فقد عجزت مصر بجميع دخلها عن سداد مجرد فوائد الديون، وفى هذه الديون كان الجنيه فى أول العام تحق عليه فوائد ٦٠ قرشا عند آخر العام!!.. ورهنت المحاصيل وهى مازالت مزروعة ورهنت مديريات بأكملها كالمنوفية والشرقية والجيزة، وكذلك ايرادات السكة الحديد والجمارك والضرائب بكافة أنواعها وعوائد الملاّحات.. واستفحل التدخل فى الشئون الداخلية بأن صار فى الوزارة المصرية وزير فرنسى للاشغال ووزير انجليزى للمالية..

ونظر الذئب الانجليزى الى كل هذا وقال لنفسه:

ـ نضجت الطبخة، بدأت بالتجارة وبتصدير المال ولم يعد متبقيا لى سوى الاحتلال والسيطرة التامة.

وإنهالت التعيينات لأفاقى أوروبا فى الوظائف الكبيرة دون عمل يؤدونه، حتى زاد عددهم عن سُبع عدد جميع الموظفين ولهم الرواتب العالية، فى نفس الوقت الذى استغنى فيه عن مئات الموظفين بحجة ضغط المصاريف، وحدث فى شهر فبراير ١٨٧٩ لوحده أن أحيل الى الاستيداع مرة واحدة ٢٥٠٠ ضابط!!

◆ الفصل السابع ◆

برقية السلطان التركى .. وعرائض معاشر الناس ..

كأسلافه كان الخديوى حاكما مطلقا، ولم يكن هناك من يحاسبه ـ وأخطاء أمثاله تدفع ثمنها أجيال عديدة تالية لا ذنب لها ـ وكانت الحياة النيابية فى عهده شكلية تتمثل فى "مجلس شورى النواب" المكون من بعض كبار الأعيان ورأيه لا يتعدى الاستشارة.. وعندما أشهر اسماعيل افلاسه عام ١٨٧٦ لم يكن المجلس قد انعقد مرة واحدة خلال العامين السابقين!!.. وكان التدهور قد بلغ أقصى مداه، والتدخل الأجنبى قد صار استعمارا مقنعا بحيث أصبحت مهمة الخديوى هى توقيع المراسيم التى يعدها الوزيران الأجنبيان، فثار الوطنيون وعقدوا اجتماعا على شكل جمعية وطنية فى منزل أحدهم، ثم رفعوا الى الخديوى قرارين، الأول مشروعا لتسوية القروض المالية والثانى تخويلا لمجلس شورى النواب بمناقشة ميزانية البلاد وبجعل الوزارة مسئولة امامه..

وهنا أراد اسماعيل أن يضغط بهم على الأجانب، فجازف بقبول هذين المطلبين وشكل وزارة جديدة طرد منها الوزيرين

الانجليزى والـفرنسى.. وبدأ المجلس يناقش مـواد الدسـتـور الجديد عام ١٨٧٩، والذى أعده محمد شـريف باشا أبو الدستور، وكانت البلاد تمر بمجاعة فظيعة مـات فيها الألوف من الفقراء ـــ وهنا تحرك الانجليـز، فلو أن المجلس أتم دستـوره وصار من حقـه تنظيم الميـزانيـة وتمكـن من تسـديد الديون، اذن لانهـارت خطة الذئب.. لذا صـار من اللازم ايقاف هذا المجـلس وعزل الخـديوى نفسـه ان عارض هذا الايقاف.

وطلبت المانيا من السلطان عزل الخـديوى، فتردد الذئب المريض الذى كادت جيـوش مصر فى عهد مـحمد على ان تنقض على عاصمتـه.. فلما مارست انجلترا عليه بعض الضغوط الخـفيفة استـأسد وأرسل برقيـة مُعنَونة الى "سراى القـاهرة ـــ صاحب السمو اسـماعيل باشا ـــ خديوى مصـر الأسبق..".. ما أن تلاها اسماعيل حتى صاح:

ـــ أهذا هو جزاء ٢٠ مليـون جنيه اسـترلينى أرسلتهـا رشاوى لهؤلاء العثمانيين؟!..

وقال القنصل الأمريكى وكان صديقا له: "إن اسماعيل أخطأ عندما وضع نفسـه تحت رحمة مولى لندن وباريس، هؤلاء الذين كان معظمهم من اليهود، وكان لديهم من سطوة المال القوة الكافية لتوجيه حكومتى انجلترا وفرنسا لخدمة أغراضهم"..

وعين خلفا لاسماعيل ولده توفيق، وكان خلع الأب درسا للابن

مفاده الرضوخ للانجليز.. فصار المندوب السامى البريطانى بمثابة "مستشارا" للخديوى الجديد. وكان يصدر التعليمات الى "سموه" فيما يختص بواجباته. وبذلك أصبح هو الحاكم المطلق لمصر.. وبالمثل كان لكبار الموظفين المصريين "مستشارين" من الانجليز يصدرون اليهم الأوامر الخاصة بما يجب عليهم عمله. وهكذا بينما كان الموظفون الأساسيون فى الدولة مصريين اسما كان أصحاب الأمر والنهى والفصل فى الحقيقة من الانجليز.. وهكذا حكم الأجانب عن طريق المراسيم التى يوقعها الخديوى الجديد. فتم حل البرلمان تمهيدا لضرب الحركة الوطنية كلها، والتى كان أحمد عرابى قد تألق فيها زعيما محبوبا شعاره مصر للمصريين. ولم يكن تألقه وظهور حركته يعجب الانجليز.. كما صدر مرسوم بابعاد رجل ملتحى نارى العينين عن مصر هو جمال الدين الأفغانى..

وكان الأفغانى قد ألهب حماسة مريديه بأفكاره الثورية، وكان قد التف من حوله مثقفو مصر ـ ومعظمهم من نتاج البعثات التعليمية التى كان محمد على قد أرسلها الى أوروبا ـ وكان منهم الأدباء والأزهريون وضباط الجيش، مثل محمد عبده وعبد السلام المويلحى، وعبدالله نديم الذى صار خطيب الثورة العرابية، وأيضا سعد زغلول الذى تزعم بعد ربع قرن ثورة ١٩١٩ التى أكدت شعار "مصر للمصريين" وطبعا مصر

بثرواتها وقناتها..

فى البداية كان الأفغانى قد فقد الأمل فى اصلاح حال اسماعيل ورآه أصل البلاء، فراح يستعجل عزله لتولية ولده توفيق على أمل أن يكون الابن أفضل من الأب، فكان أول مافعله الابن هو طرد الأفغانى.. فرحل وحل محله تلميذه الشيخ محمد عبده، لكن التلميذ لم يكن مندفعا مثل الأستاذ، فلم يكن يؤمن بالحلول الجذرية، وكان يعتقد ان البلاد لن تنضج للحكم الدستورى إلا بنشر الوعى والتعليم أولا.. لهذا كان من الطبيعى أن ينشق عليه عبدالله نديم، الشاعر الثورى النابع من الشعب ليكون جماعته الخاصة التى شكلها على حد قوله من فقراء المصريين، وصار هو خطيب الثورة الملتهب، وطاف بالمدن والقرى يشرح للناس القضية ويجمع توقيعاتهم على عريضة تفوض عرابى فى التحدث باسمهم جاء فيها: "واعلموا يا معاشر الوطنيين بأن أولادكم فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم.. والمطلوب منكم هو التوقيع على هذه النشرة والمقصود بها أن أكون نائبا عنكم فى كل مايتعلق بأحوال البلاد ــ التوقيع أحمد عرابى"



◆ الفصل الثامن ◆

السيف المشهور .. وذئاب الميناء ..

كان عرابى من أصل ريفى له مشية تشبه مشية مشايخ البلد، عريض المنكبين يتصف بنفس صفات الفلاحين، وكان قد ظهر اسمه بين صفوف العساكر والضباط ثم سرعان ما صار زعيما شعبيا عرشه هو حب الناس.. وكان خطيبا بارعا وكان ـ دون شك ـ صادق الاخلاص.. وكانت حركته ثورية شعبية واضحة الملامح والأهداف: "فحركة الفلاحين تناضل من أجل التخلص من تسلط الخديوى والأمراء والباشوات الأغنياء": هكذا سمى حركته حركة الفلاحين..

وراح خطيبه عبدالله نديم يهاجم حياة البذخ للاعيان والحكام الرافلين فى ثياب العز بين الغانيات والمبذرين للأموال الطائلة هى فى الحقيقة أموال الفلاحين البؤساء.. كما دافع بقوة عن قدرة بسطاء الناس على ممارسة الحياة الديمقراطية بشرط أن يمثلوا فى مجلس النواب على قدم المساواة مع الأمراء والأعيان ودون تفرقة طبقية ولا يكون تمثيلهم رمزيا ذرا

للرمـاد.. كما جـاهر بأمنيتـه فى أن يرى "عرش السلطان يـنهار فوق رأسـه".. وكان فى ذلك متفـقا مع ما أعلنه عرابى نفـسه من رغبـته فى التـخلص من حكم أسرة مـحمد عـلى، ومع ما أعلنه سامى البارودى رفيق عـرابى من أن الهدف هو "جمهورية مصرية حيادية مثل جمهورية سويسـرا"..

ومـعنى كل هذا أن تصـبح "مـصر للمـصريين" بعـد أن أصـبحت مـصر لقناة السـويس.. وقـد رفض الخديوى توفـيق ــ مدعـما برضا الانجليـز ــ مطالب الشعب التى رفـعت اليه عن طريق عرابى ورفض الاعتراف بزعامته، بل وأمر بابعاده مع رفاقه الضبـاط الشبـان هم وكتائبـهم الى خارج القـاهرة، فإذا بهم يقودون جنودهم الى قصـر عابدين ــ وكان ذلك فـى ٩ سبتـمبر ١٨٨١ ــ حيث واجه عرابى الخديوى من فوق صهوة جواده شاهرا سيـفه، ومن حـوله جنوده وجمـوع الناس أو معاشـر المواطنين على حد قوله.. فسلم توفيق لفـوره تسليما كاملا، ووافق على تأليف وزارة وطنية عين فيها أحمد عرابى وزيرا للحربية..

لكـن سـرعان ماأحتج البريطانيون والفرنسيون على تعيينه!!.. فكان هذا كـفيلا بأن يزيـده شعبـية عن ذى قـبل، وسـرعـان ما انتشـر بين الناس نبأ عن اكتشاف مؤامرة لاغتياله، وكان وراؤها حـوالى أربعين ضـابطا تركـيا وشـركسـيـا.. وعندما حـوكمـوا وقضـى بنفيهم الى السودان رفض توفـيق اعتماد الحكم.. فقد

كانت لتوفيق هذا بعض صفات الجوارى ــ وكان فى الأصل ابنا لاحدى جوارى اسماعيل ــ فهو يرضخ للارادة الأقوى منه لكنه الرضوخ الظاهرى، ثم يحاول بالالتواء أن يستعيد ما فقده، وما من انسان وثق فيه إلا وخانه، كانت تأكله الغيرة من عرابى لذلك بيت له نية الانتقام.. بينما كان عرابى مثاليا طيبا ظن أن الخديوى قد صفا قلبه عندما صافحه وعانقه فيما بعد..

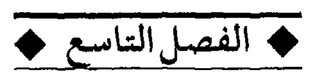
وبسبب انتصار عرابى عمت الفرحة مصر، وراح الناس يرسلون اليه الشكاوى والمظالم لانصافهم من ظلم الأثرياء والمرابين، وتشكل المجلس النيابى على هيئة جمعية تأسيسية لبحث الدستور وصار له حق مناقشة الميزانية.. وهو مالم يكن يريده الانجليز ــ وهو نفس السبب الذى عزلوا بسببه اسماعيل ــ لكن الوضع هذه المرة اختلف، إذ كان توفيق نفسه تحت الحماية الانجليزية شاعرا بالعداء لعرابى الذى تجرأ وشهر سيفه فى وجه من فوق صهوة جواده..

ولما وجد السلطان التركى أن عرابى قد صار صاحب الكلمة فى مصر، أرسل سرا من يعرض عليه ان يتبوأ حكمها بدلا من سلالة محمد على، مقابل أن يضرب النفوذ الانجليزى والفرنسى وبشرط ان يدين بولائه للدولة العثمانية، ورفض عرابى، لم يقع فى فخ السلطان، وقال: "أنا لا أريد شيئا

لشخصى، بل المساواة بين الطبقات واحترام الفلاح وعدم تسخيره وعدم اغتصاب ربع أرضه". لذلك كرهه السلطان التركى، وزاد كرهه عندما وجد أن عرابى قد أصبح أمل المسلمين خارج مصر أيضا، فاضحا بذلك زعم الخلافة الدينية التى كان يتمسح بها العثمانيون.. وقرر السلطان ارسال حملة عسكرية الى مصر لتأديب عرابى، فما كادت تصل الى اللاذقية بسوريا حتى هاج الناس ضدها وامتنعوا عن التعامل معها. وعندما شذ أحد التجار عن اجماع المقاطعة وباع للأتراك، حرق السوريون محاله وتركوه يبكى دون مساعدة شامتين فيه: فليساعدك سادتك الأتراك..

أما انجلترا وقد شعرت بخطورته على خططها الاستعمارية فقد سارعت وعرضت عليه منحة شهرية ضخمة مدى الحياة له ولأسرته من بعده، مقابل أن يغادر مصر ويعيش فى أية دولة أوروبية يختارها.. لكنه أبى ورفض عرضا مماثلا من فرنسا.. فأدركت الدولتان أنه عازم على اكمال الطريق، فجاءت الأساطيل الانجليزية الى ميناء الاسكندرية بقصد احتلال مصر بلد قناة السويس عسكريا.. وأخطأ عرابى فسمح للخديوى بالسفر الى الاسكندرية بعد ان كان فى قبضة يديه بالقاهرة، فعل ذلك رغم معارضة معظم أعوانه، وعلى رأسهم بطل الشجعان المسمى محمد عبيد..





لمحات من خيانات الأعيان .. وردم القناة ومد الامتياز ..

كانت خيانة توفيق قد أضحت يقينا عن الجميع وأفتى العلماء باستباحة دمه، لكن عرابى جفل من القتل ورفض متعللا بأن قتل الخديوى سوف يعطى فرصة للدول الأوروبية للتدخل المسلح على أساس أن الأمن فى مصر غير مستتب. وهنا عرض عليه بطل الشجعان محمد عبيد أن يقوم باغتيال توفيق على أن يقبض عليه عرابى بعد ذلك ويحاكمه ويشنقه، وبهذا يقطع الطريق على الذئاب الأوروبية..

وفات عرابى الطيب وعبيد المتحمس أن التدخل كان وشيك الوقوع، وأن اختلاق الأعذار سهل ميسور.. فقد زعم الاجليز أن عرابى قد قام باصلاح المدفعية الساحلية للاسكندرية، وفى هذا تهديد خطير على بريطانيا "!!".. وبناء عليه فقد اكتظت ميناء الاسكندرية بالبوارج الحربية من النمسا وأمريكا وألمانيا واليونان وروسيا القيصرية الى جانب الأسطول الفرنسى

والأسطول الانجليزى.

وقبل فجر يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ كانت جميع القطع قد تراجعت الى عمق البحر تاركة المجال لأسطول بريطانيا العظمى منه للشاطىء. حيث بدأت مدافعه فى تمام الساعة السابعة ندك المدينة الساحلية الجميلة فوق أهاليها العزل.. وكان قائد الأسطول على يقين من أن استحكامات الشاطىء المصرى قديمة يرجع بعضها الى عصر محمد على، وكان يقدر لاسكاتها مدة نصف ساعة لا تزيد.. لكنه منى بخيبة أمل بالغة، إذ استمر الضرب طوال النهار، وكان المصريون يعاودون الضرب كلما انقشع دخان القنابل الانجليزية.. وظلت المقاومة مستمرة حتى نفذت الذخيرة المصرية وتهدمت المنازل..

نقل عرابى جيشه الى كفر الدوار، ولم يقدر الانجليز على مواجهته هناك وخشوا ان يغرق عليهم الدلتا، فعزموا على الالتفاف من ناحية الشرق أى من ناحية قناة السويس، فتمركز لهم عند التل الكبير ولكن متأخرا، وقرر ردم القناة كى يغلقها فى وجه سفنهم القادمة بالجيوش من الهند، غير أن ديلسبس وعده باغلاقها فى وجوههم.. ولم يثق عرابى وقرر بعد فوات الأوان بث الألغام فى مدخل القناة، لكن التلغيم لم يتم!.

فى ٢٠ أغسطس احتلت قوات البحرية البريطانية بورسعيد،

وتقدمت بطول الممر المائى، مما دعا القيادة المصرية الى اجتماع حربى فى نفس اليوم فى كفر الدوار قررت فيه ردم القناة وردم الترعة العذبة، وأرسلت برقية بهذا المعنى الى قائد الجبهة الشرقية.. إلا أن الوقت كان قد فات على تنفيذ هذا القرار الاستراتيجى..

تقدمت جحافل الانجليز من الشرق أى من عند قناة السويس، واقربت من مشارف التل الكبير مدججة بأعتى الأسلحة وبأعداد تفوق اعداد الجيش المصرى بأربعة أضعاف.. ورغم هذا فقد استبسل المصريون فى الدفاع، ودام القتال ــ منذ ضرب الاسكندرية ــ قرابة الشهرين.. لكن اللعنة على خيانة السادة..

قال المؤرخون الأجانب المنصفون: "ان انتصار الانجليز على عرابى لم يكن راجعا الى كفاءة قواتهم، وانما الى خيانة بعض الأعيان على رأسهم سلطان باشا".. ففى ظلام الليل قام أذناب الخونة بارشاد الانجليز الى المسالك الخفية لينقضوا على قلب جيش الفلاحين وعلى استقلال مصر. لكن مصر لم تكن تهمهم بقدر ماكانت تشغلهم ثرواتهم وكيفية الاحتفاظ بها بشتى السبل حتى لو صاروا أذلاء للانجليز.. واحتلت بريطانيا العظمى سيدة بحار الدنيا وقتها مصر وبالتالى السودان

بالتبعية..

وكان أول مافعلته ان أمرت خديويهم توفيق بالغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للعرابية، وحصر مهمته فى المحافظة على النظام داخل البلاد، أى تحويله الى جيش بوليسى، خفض الى ستة آلاف جندى فقط!.. وبعد تنفيذ هذا التخفيض اتخذت منه ذريعة لبقاء جنودها فى مصر بحجة حمايتها لعدم وجود جيش خاص بها!!

لكن "ولسلى" قائد قوات الاحتلال اعترف فيما بعد بأنه "لو كان عرابى قد سد القناة فاننا كنا سنبقى زمنا طويلا لا نقدر على أكثر من فرض حصار بحرى على مصر.. لقد أنقذنا تأخره عن ذلك يوما واحدا"..

بعد معركة التل الكبير دخل الانجليز القاهرة فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ ليبدأ عهد الاحتلال البريطانى (وكانت بداية حربهم ضد مصر فى يوم ١١ يوليو من نفس العام).. وانزعجت الدول الأوروبية الأخرى من استئثار انجلترا بالشئون المصرية وبخاصة قناة السويس، وحتى تسكتهم الحكومة الانجليزية أعلنت ضمانها لحرية الملاحة والمرور فى القناة وأكدت صفتها الدولية.. وتم تدوين اتفاقية القسطنطينية فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٨٨ التى تعطى "حق المرور فى القناة لسفن جميع الدول دون

استثناء عدا الدول التى تكون فى حالة حرب مع مصر".

وظلت شركة القناة الأجنبية التى يرأسها ديلسبس تستولى على دخلها، وكان نصيب الانجليز منه يزيد عن ٤٤ فى المائة.. ويروى أنه فى أواخر عام ١٩٠٩ تقدمت الشركة تطلب من النظارة المصرية "أى الحكومة المصرية" مد امتياز قناة السويس لأربعين عاما أخرى "!!" أى حتى أواخر عام ٢٠٠٨. وقد قوبل هذا المشروع بمعارضة ضارية من كافة القوى والاتجاهات بمصر، وأصدر طلعت حرب كتابا بعنوان "قناة السويس" هاجم فيه مد الامتياز وأعاد ذكر تاريخ الشركة الأسود مع المصريين المغلوبين على أمرهم.. وانتهى كل ذلك باغتيال رئيس الوزراء المصرى وقتها وباغتيال مشروع المد نفسه..

◆ الفصل العاشر ◆

تنويعات على لحن البطل الجسور.. ورد الفلاح على الانجليزي ملنر..

ويحكى انه فى أعقاب الاحتلال اختفى رفيق عرابى محمد عبيد، شعلة الحماسة والنقاء، الباسل الذى قاتل حتى النهاية، والذى كان صيته عند الناس عظيما.. فلما اختفى ولم تظهر له جثة ظلوا يعتقدون فى نجاته من الموت، وراحوا يشيعون انه حى وانه دائم التنقل هربا من الانجليز ومجهزا لجولة أخرى ضدهم.. تحول الى أسطورة النقاء الثورى التى يعشقها الناس، والتى ينسجون من حولها الأساطير وينشدون من أجلها الملاحم: الأقدام والطيبة والطهارة الثورية..

ومع ازدياد عسف الانجليز كان كره المصريين لهم يتضاعف. وقد حدث فى عام ١٩٠٦ ان كان عدد من ضباط الاحتلال البريطانى يصطادون الحمام قرب قرية مصرية آمنة صغيرة اسمها "دنشواى" فقتلت رصاصاتهم احدى الفلاحات وحرقت بعض الأجران، مما استفز الأهالى فخرجوا يطاردونهم.. وحدث ان مات أحد هؤلاء الجنود بضربة شمس، وكان ذلك فى الثالث عشر

من شـهر يونيـو الـقائظ.. ومـا أن وصل الخبـر الى الـقاهرة حـتى صدر الأمر بـتشكيل محكمة خـاصة نقلت معهـا المشانق الى القرية من قبل نظر القـضية وملابساتهـا!!.. وما دامت المشانق قد نصبت فقد اجتمـعت "المحكمة" ونظرت "القضية" وبعد أن "تداولت" أصـدرت حـكمـا يقـضى باعدام أربـعة من الـفـلاحـين وبسجن وجلد سـبعة عشر آخـرين!!.. ولما كان حـكمهـا هذا غير قابل للاسـتئناف أو للتصـديق عليه من أية جـهة عليا فـقد تم تنفيذه فى اليوم التالى مـباشرة ، ويشنق الأربعة وجلد الآخرين على مرأى من أهالى قرية دنشواى نفسها!!.

واستكمـالا للشكل "الديمقـراطى" فقد حـضر خبـير الطب الشرعى التنفـيذ وشهـد بصحة الشنق وشـهد أيضا بصـحة الجلد "!!"..

وقد هزت هذه المجـزرة أصحاب الضـمائر من الأوروبيين.. فـما أن بلغ أمـرها الى الكاتب الايرلندى الساخـر الشهـير "برنـارد شو" حـتى هب يهـاجم هذه العـدالة الانجليـزيـة، وكـتب قـائلا: "إن مافعله الفلاحون المصريون لا يخـرج عن نفس ما كان سيفعله نظراؤهم من الانجليـز لو انهم اضـيروا بنفس مـاأضيـروا به فى المال والحـرمات، وان الضبـاط الانجليـز لم يكونوا فى الخدمـة يوم الحادث، بل كانوا عابثين بلعبة أساءوا ممارستها، وأن الفلاحين لم يكن بامكانهم التحمل إلى حين الشكوى لذوى الأمر الذين هم

من الانجليز أيضا!!.. وأن أحد المشنوقين ـ يقصد حسن محفوظ ـ كان كهلا فى الستين ولم يكن هناك مبرر لشنقه!!"..

ثم انهال ساخرا من لورد كرومر المندوب السامى الانجليزى بالقاهرة ومن مساعده، وعندما دافع هذا الأخير عن جريمة جلد الفلاحين بالسياط لأن المصريين فى زعمه "قدريون لا يأبهون للموت وانما يؤدبهم السوط" رد عليه شو هازئا: "اذن فلماذا شنقتم أربعة من هؤلاء القدريون؟!"..

وظل المصريون يترقبون عودة البطل الجسور، ولم يدم انتظارهم طويلا.. إذ سرعان مابعث من جديد كأقوى مايكون فى ملايين البسطاء والفلاحين، الذين هبوا بعد هزيمة التل الكبير بنحو ربع قرن يشهرون سلاح العداء ضد الانجليز، وقد وجدوا زعيما جديدا له اسم سعد زغلول، الذى كان قد عرف فى شبابه أحمد عرابى وعبدالله نديم، وكان مثلهما خطيبا بارعا..

وقد حدث فى أواخر عام ١٩١٩ ان وصلت لجنة انجليزية سميت باسم رئيسها ملنر بغرض الاتصال المباشر بالمصريين ـ قفزا من فوق رءوس الزعماء ـ لمعرفة أسباب السخط التى أدت بهم الى القيام بثورة مارس من نفس العام.. وطلب سعد زغلول من مساعده الرهيب عبدالرحمن فهمى العمل على مقاطعة هذه اللجنة، فنشر هذا أعضاء تنظيمه السرى يطلبون من الأهالى عدم التحدث معها، وكانت مقاطعة مدهشة ناجحة الى

أقصى حدود النجاح فى الريف والمدن..

وذات يوم هبطت هذه اللجنة الى احدى قرى الجيزة، فراح الفلاحون ــ وكان الأوروبيون يسمونهم بأصحاب الجلاليب الزرق ــ يفرون من وجهها حتى لا يتحدثون اليها.. وعندما ضيقوا الخناق على واحد منهم سأله ملنر بواسطة مترجمه عن رأيه فى أسباب ثورة مارس ١٩١٩ ورد الفلاح:

ــ اسأل سعد..

وحاول ملنر أن يكسب وده بالتبسط معه، فسأله عن عدد المرات التى يروى فيها زراعته، وبعد برهة صمت رد الفلاح:

ــ اسأل سعد!!



◆ الفصل الحادى عشر ◆

فصل من ثورة أصحاب الجلاليب الزرق.. ومن دسائس الرأس الكبير..

فى الفترة من عرابى الى سعد كانت فرنسا قد أطلقت يد انجلترا فى مصر، مقابل اطلاق يدها فى بلاد أخرى.. وعندما قامت الحرب العالمية الأولى صار عساكر الحكومة يجمعون الفلاحين ودوابهم للعمل فى خدمة الانجليز، فى تمهيد الطرق ونقل المعدات الثقيلة عبر الصحراء، ولجأت الحكومة الى العنف لجمع الرجال، فكان عساكرها يكمنون عند مشارف القرى ساعة الغروب، حيث ينقضون على الفلاحين العائدين من حقولهم وينتقون منهم أكثرهم صحة ويرسلونهم تحت تهديد السلاح والسياط الى خدمة جيش الاحتلال، وهو نفس ماكان يُعمل معهم عند حفر قناة السويس.. ولهذا سخط الفلاحون..

كذلك سخط أصحاب المال من المصريين من مزاحمة الأجانب لهم واستئثارهم بكل النشاط الصناعى والتجارى، وبالمثل أصحاب الأطيان حيث أجبروا على بيع قطنهم للمستوردين الانجليز بسعر أقل من سعره العالمى، وأيضا الطبقة المتعلمة

التى كانت محرومة من المناصب الكبيرة لانفراد الأجانب بها..

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٨ ــ وكانت روسيا قد خرجت منها بعد ثورتها الاشتراكية ــ تكون وفد من عيون البلد للمطالبة بالاستقلال سمى الوفد المصرى ــ الذى صار بعد ذلك حزب الوفد ــ ولما كانت تنقصه الصفة الرسمية للتمثيل فقد تم تدعيمه بمئات العرائض الموقعة من الجماهير تفوضه فى التحدث باسم مصر (وهذا أشبه بما فعله عرابى عندما طلب من معاشر الناس أن تفوضه فى التحدث باسمها).. وكما قاوم الانجليز أحمد عرابى فقد قاوموا تحركات الوفد المصرى عن طريق الأحكام العرفية التى كانت مفروضة وقتها.. لكن عملية جمع التوقيعات اتسعت وأضيفت اليها الخطب فى المنتديات وطبعها وتوزيعها. بحيث صار المناخ مهيأ تماما للثورة..

وكان سعد زغلول مريدا للشيخ محمد عبده، آمن مثله بأن طريق الاستقلال يمر بالاصلاح الاجتماعى وبتعليم الناس، لذلك أيد قاسم أمين فى دعوته الى تحرير المرأة.. ومن منزله صدر المنشور الخاص بانشاء أول جامعة مصرية، والتى تعرف الآن باسم جامعة القاهرة..

وقد جاءت شرارة الثورة فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم

السبت ٨ مارس ١٩١٩ عندما ذهب الى بيت سعد زغلول ــ الذى كان يسمى بيت الأمة ــ ضابط بريطانى معه مترجم قبرصى وخمسة من الجنود الانجليز المسلحين بالمسدسات فى سيارة كبيرة بريطانية تحمل مدفعا رشاشا. حيث وقف ثلاثة منهم على الباب الخارجى للمنزل بينما دخل الضابط ومترجمه والجنديان الآخران على الزعيم فى غرفة مكتبه وأبلغه أمر اعتقاله فورا وبلا مناقشة. ثم صحبوه معهم الى سيارتهم الحربية التى انطلقت به الى ثكنة قصر النيل (مكان فندق هيلتون وجامعة الدول العربية الآن).. ثم نقل الى بورسعيد عند مدخل القناة. ومع عدد من رفاقه نقلوا الى منفاهم فى جزيرة مالطة بالبحر المتوسط..

ورغم ان هذا الاعتقال تم فى كتمان شديد إلا أنه لم يمض يوم واحد حتى عرفته القاهرة كلها. ولم تمض ثلاثة أيام حتى عرفته مصر كلها حتى أعمق أعماق ريفها.. وفى اليوم التالى مباشرة قامت مظاهرة من طلبة الحقوق والهندسة والمعلمين والطب والزراعة والتجارة. ورغم انهم كانوا فى مظاهرة سلمية إلا أن الجنود الانجليز أطلقوا عليهم الرصاص.. فاتسعت المظاهرات فى اليوم التالى لتشمل طلبة الثانوى والابتدائى والأزهر والمعاهد الدينية.. ثم عمال المنائر والسكك الحديدية

والمحامون ورجال القضاء والأطباء والمعلمون.. وكان خطباء المسلمين يخطبون فى الكنائس، وخطباء المسيحيين يخطبون فى المساجد، محبطين بذلك محاولة الانجليز لاثارة الفتنة الطائفية بين المصريين على أسس منهجهم الشهير: فرق تسد.. ثم تلا كل ذلك اضراب عام شمل جميع الفئات والمهن وفى شتى أنحاء مصر.. وبعده اشتعلت الأعمال الفدائية، فقتل الثائرون الجنود الانجليز بالشوارع ليلا فى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد وغيرها، مما اضطرهم الى عدم الخروج إلا فى مجموعات مسلحة.. ثم انتقلت أعمال العنف على أشدها فى باقى المدن والمراكز والقرى، وانتشرت الحرائق وأعلنت بعض المناطق استقلالها وخروجها عن طاعة الحكم الانجليزى منها مديرية المنيا وقريتى زفتا وميت غمر ومناطق أخرى، وأعلنت كل جهة من نفسها جمهورية مستقلة!

بعد شهر كامل اضطر الانجليز الى التراجع بالافراج عن سعد زغلول ورفاقه.. وبالسماح للوفد المصرى بالسفر الى أى مكان.. وقد وقع هذا القرار "نائب جلالة الملك الخاص أ. هـ هـ اللنبى"..

والمقصود بجلالة الملك هنا هو ملك الانجليز بالطبع وليس ملك مصر.

وانتهى الأمر بالفوز بخطوة هامة على طريق الاستقلال. إذ أعلنت مصر دولة مستقلة ذات سيادة من حقها انشاء القنصليات التى تمثلها بالخارج كدولة مستقلة بعد أن كانت بلا وزير خارجية، وأصبح لها دستور سمى بدستور ١٩٢٣ كان من شأنه أن يحد من سلطة الملك والأعيان بعض الشىء، وكانت خبرة المصريين قد علمتهم ان النكبات تتكاثر مع وجود الحاكم المطلق ومع غياب الحكم النيابى والحرية..

غير أن هذا الاستقلال كان مشوبا بأربعة تحفظات أهمها التحفظ الخاص بتأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية بمصر، أى باستمرار تسخير قناة السويس لصالح انجلترا..

وتولى سعد زغلول أول وزارة دستورية، فقام على الفور بالعمل على أن تستقل العملة المصرية عن العملة الانجليزية، وعلى زيادة ميزانية التعليم وتشجيع الفنون الجميلة، وبيع أكبر جزء ممكن من أرض الحكومة الى صغار المزارعين، والاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأجانب..

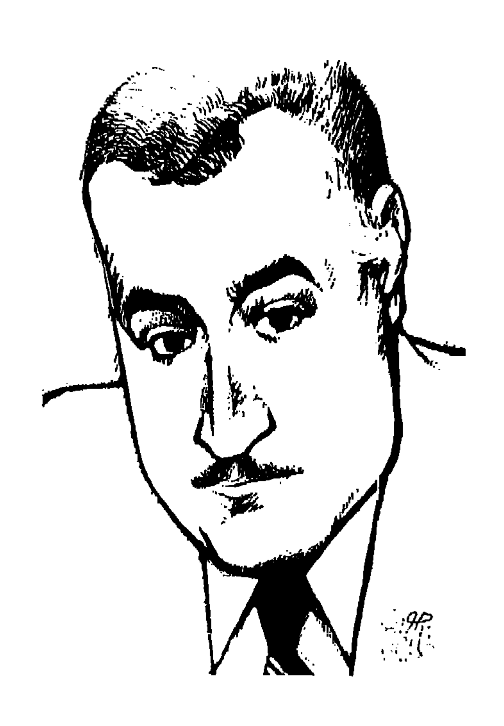
كانت الجماهير هى التى خلقت سعد زغلول زعيما، وهى التى أججت بداخله شعلة الثورية، وحققت من خلاله خطوات هامة على طريق جعل "مصر للمصريين".. وجعلت منه أقوى وأحب شخصية تعيش على أرض مصر، ورئيسا لحزب الأغلبية

الشعبية الساحقة.. لذلك فقد كرهه الملك وكرهه الانجليز.. ولذلك أيضا كان يوم وفاته حزنا وبكاء فى كل دار مصرى، وشماتة فى قصر الملك وفرحا فى دار المندوب السامى البريطانى.. وما أن تولى خليفته مصطفى النحاس باشا رئاسة الوزارة حتى وضعت فى طريقه كمية هائلة من العراقيل أدت الى تقديم استقالته..

لكن النحاس باشا لم يكن بالرجل السهل، فقد خرج من عند الملك وتوجه رأسا الى البرلمان حيث شرح للأعضاء بطريقته البارعة فى الخطابة كافة المضايقات التى حاربه بها القصر، فهبوا ثائرين يعربون عن سخطهم، ودفع الغضب بأحدهم وهو الكاتب المعروف عباس محمود العقاد الى التفوه بعبارته الشهيرة:

"ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلد فى صيانة الدستور وحمايته".

وكان يعنى بأكبر رأس فى البلد الملك فؤاد نفسه..



الفصل الثاني عشر

دقائق من يوم تحطيم السلاسل ومن لعبة القطارات الحديدية

قبل الرأس الكبير الملك فؤاد التحدى بقبوله لاستقالة النحاس باشا، وبتكليفه لعدو حزب الوفد اللدود اسماعيل باشا صدقى بتأليف وزارة جديدة فى يونيو ١٩٣٠ سميت بوزارة القبضة الحديدية للجوئها الى شتى أساليب القمع والاعتقالات.. وكان الملك يريد البلاد بلا دستور، بلا برلمان، كما كان يريد ضرب حزب الوفد.. ولهذا فقد أمر صدقى باشا بفض مجلس النواب ابتداء من اليوم التالى لتوليه الوزارة!!.. لكن رئيسا مجلسى النواب والشيوخ ـ ويصا واصف وعدلى يكن ـ أبلغاه أن مرسوم التأجيل ـ طبقا للدستور ـ يجب أن يتلى بالمجلسين، فطلب بألا يتحدث أى عضو من النواب بعد تلاوة المرسوم لكن طلبه رفض، فما كان منه إلا أن أغلق أبواب البرلمان بالسلاسل الحديدية، مما جعل ويصا واصف يصدر أوامره لأحد رجال اطفاء المجلس بتحطيم السلاسل بالبلطة، وتم ذلك فسمى هذا اليوم بيوم تحطيم السلاسل!!..

ورد صدقى باشا بأن استصدار مرسوما ملكيا بفض الدورة البرلمانية كلها، ودفع البوليس الى طرد النواب الذين حاولوا الاعتصام بالمجلس، ضاربا عرض الحائط بما للمجلس من حرمة ومن حصانة برلمانية!!.. وانتهى كل ذلك بأن خطا الرأس الكبير خطوته الكبرى باصدار مرسومه السامى بابطال دستور ١٩٢٣ نهائيا، بحجة أنه مقتبس من الدساتير الأوروبية المتقدمة فهو لا يصلح لبلادنا المتخلفة، وانه أشبه بالثوب الفضفاض لشعبنا الذى لم ينضج بعد لممارسة الديمقراطية!!..

لكن عندما ثار "هذا الشعب الذى لم ينضج بعد لممارسة الديمقراطية" أعلن صدقى باشا أنه مادام الناس يهوون الدساتير فهو يقدم اليهم دستورا جديدا، سمى بدستور ١٩٣٠، وقد جاءت بنوده مطابقة لرغبات القصر.. ثم شرع فى تكوين حزب خاص به سماه ــ دون حياء ــ حزب الشعب، استغل السلطة فى اكراه العمد والمشايخ على الالتحاق به، وفى تهديد كل موظف بالفصل ان لم ينضم.. ولم ينس طبعا أن يعين نفسه رئيسا لهذا الحزب، وان يصدر له جريدة سماها ــ أيضا! ــ جريدة الشعب، لم تكن تنشر سوى بيانات التأييد والتحبيذ لكل ما تأتى به حكومته من اجراءات قمعية لهذا الشعب الذى تسمت باسمه!!..

بعد ذلك أعلن صدقى باشا عن اعتزامه اجراء انتخابات

جديدة، أراد أن يضمن بها أغلبية برلمانية لحزبه ـ ولو صورية ـ حتى يتمكن من التفاوض مع الانجليز تحت زعم تمثيله للأغلبية.. ولقد فهم الوفد ـ حزب الأغلبية الأصيل ـ هذه الحيلة، فرأى رئيسه مصطفى النحاس أن يتحالف مع حزب الأحرار الدستوريين فيما سمى وقتها "عهد الله والوطن" لجعل هذه الانتخابات كأن لم تكن، وذلك بتحريض المواطنين على مقاطعتها.. وكانت هذه بداية المتاعب الدموية للوزارة الصدقية، حيث لم تتوان جميع الهيئات عن اظهار رفضها له وبكل السبل.. وقرر الحزبان المتحالفان أن ينتشر الزعماء فى أنحاء البلاد لافهام الناس أبعاد المؤامرة، وكان من بينهم عدلى يكن وفتح الله بركات ومكرم عبيد والدكتور حسين هيكل وآخرون، وبالطبع مصطفى النحاس خليفة سعد زغلول.

كان اليوم المحدد لسفرهم الى طنطا فى أواخر عام ١٩٣٠ يوما عجيبا، فغيوم الشتاء تحجب دفء الشمس وتحيل نور النهار الى الرمادى المقبض المثير للتوتر، وقوات الحكومة تزيد من هذا التوتر بحصارها لمحطة السكة الحديد من جميع الجهات، تنفيذا لأوامر صدقى باشا الصادرة بمنع سفر الزعماء الى طنطا بكافة السبل حتى ولو بالقوة المسلحة، وكانت طنطا احدى معاقل الوفد التى يحظى فيها بأغلبية شعبية..

ويحكى أن ميدان باب الحديد (رمسيس حاليا) كاد أن يمتلىء بعدد كبير من المواطنين الذين تجمعوا عن قرب ومن حول تمثال نهضة مصر (الذى نقل بعد ذلك إلى قرب جامعة القاهرة) فى انتظار معرفة ردود أفعال زعمائهم.. ولم يدم ترقبهم طويلا، فمع اقتراب موعد قيام القطارات وصلت السيارات التى هبط منها الممنوعون من مغادرة القاهرة، بالطرابيش فوق رءوسهم والمنشات أو العصى فى أيدى بعضهم، وسمات الوقار على وجوههم.. وتحفزت القوة المسلحة للتصدى لهم.. وساد صمت التوتر لدى الأهالى المحتشدين.

نظر الزعماء الى البنادق المصوبة اليهم ثم الى الجموع المحتشدة، ومنهم استمدوا الشجاعة التى جعلتهم يتقدمون شامخين فى خطوات واثقة يشقون طريقهم الى مدخل المحطة غير هيابين، الأمر الذى جعل أفراد القوة المسلحة يجمدون فى وقفتهم مأخوذين من هذه الجسارة، وقبل أن يستفيقوا ليحركوا ساكنا كانت الخطوات الواثقة قد عبرت المدخل وصارت تدق رصيف قطارات الوجه البحرى..

وكما أصابت هذه الجرأة أفراد القوة المسلحة بالشلل المؤقت فقد هزت انفعال الأهالى فانطلقوا يهتفون بسقوط صدقى باشا ووزارته، ثم تحركوا قاصدين الدخول الى المحطة، لكن القوة المسلحة تصدت لهم وانشغلت فى منعهم وفى تفريقهم..

بينما كان الزعماء يصعدون الى احدى عربات الدرجة الأولى، وهم يسمعون هدير الناس بالخارج يهتفون بحياتهم..

ولم يدم كل هذا سوى دقائق قليلة جدا، تفرق بعدها الأهالى بالخارج منتشرين الى أرجاء القاهرة سيرا على الأقدام أو بالترام أو بعربات الحنطور، يروون لكل من يقابلهم عن هذه الحادثة التى بهرتهم.. بينما الزعماء فى داخل القطار يشكرون الركاب الذين اقبلوا على تحيتهم.. لكن سرعان ما أخذت ايديهم القلقة تخرج الساعات من الجيوب لمعرفة الوقت، لقد أزف موعد تحرك القطار ومع ذلك لم يدق جرس القيام!!.. وراحت أنظارهم المتوترة تراقب الرصيف علهم يجدون من يفسر لهم سر هذا التأخير، وقد داخلهم الشك من أن يكون صدقى باشا قد ألغى الرحلة كلها..

لكن دقات الجرس النحاسى دوت فى أرجاء المكان وبدأ القطار يتحرك مغادرا المحطة، وآلته البخارية تنفث دخانها الكثيف الذى تصاعد الى الجو الملبد بالغيوم ليزيد من قتامة النهار الذى كان مازال فى أوله.. وارتاح الزعماء الى انتصارهم هذا، وتملكت النشوة قلوب الركاب فراحوا يتحدثون معهم فى شئون الساعة، وكان الناس وقتها يتناقشون فى كل كبيرة وصغيرة اذ كان العمل السياسى ملكا للجميع ولم يكن حكرا

على القادة وحدهم..

فجأة توقف القطار.. ثم اهتز متقهقرا فى عدة ارتجاجات.. ثم ثبت فى مكانه ثانية، وبعدها عاد الى سيره مرة أخرى، فعادت المناقشات دون أن يخمن أحد سر توقف القطار واهتزازاته، غير أن نظرة سريعة الى المناظر المتحركة بالخارج جعلت صاحبها يهتف:

ـ لقد ضل القطار!!

نظر القريبون الى الخارج ضاحكين: كيف يضل وهو يسير على قضيبين يحددان اتجاهه؟!.. لكنهم ما بتروا ضحكاتهم مدققين: هذه مشارف العباسية تلوح واضحة دون أدنى ريب، فكيف حدث هذا؟!

شيئا فشيئا خمنوا الموقف، فعندما توقف القطار فصلت عنه العربات التى يجلسون بها، وعندما حدثت الارتجاجات والاهتزازات كانت هذه العربات قد ألحقت بقاطرة أخرى، هى التى تتهادى بهم الآن على مهل فوق خط العباسية!! بينما القطار الأصلى يواصل طريقه اليومى العادى عبر الدلتا الى طنطا.. وكانت هذه هى الخدعة التى تفتق عنها ذهن صدقى باشا، والتى انتهت بان وجد الزعماء أنفسهم على مشارف صحراء العباسية بدلا من طنطا حيث آلاف المواطنين فى انتظارهم.. وتأمل أحدهم وجوه الركاب الآخرين فى رثاء، هاهى

دعابة صدقى السخيفة تحضرهم الى مشارف صحراء العباسية بعد أن كانت وجهتهم بنها أو طنطا أو الاسكندرية.. وكان الركاب ينظرون الى الزعماء منتظرين منهم عملا ما، تصرفا ما، أليسوا زعماء؟!

فتح أحدهم النافذة ناظرا الى القاهرة مناديا على السائق أن يقف، لكن دوى الآلات كان هادرا، وحتى لو سمعه السائق فلن يلتفت اليهم، ولم يكن بالعربة "كمسارى" واحد يتفاهمون معه!!.. وتناثرت عبارات الركاب محمومة غاضبة، تسب وتلعن صدقى باشا وبطشه:

ــ يسمى نفسه القبضة الحديدية، وهو ليس إلا قفازا حريريا فى قبضة حديدية، هى قبضة الانجليز فى معظم الاحيان، وهى قبضة الملك فى أحيان أخرى!!

ثم سرعان ــ حسب الطبع المصرى ــ ماتم اكتشاف بعض الجوانب المضحكة فى الموضوع فانقلبت اللعنات الى نكات تسخر من رئيس الوزراء.. بينما القطار يتسكع بهم على شريط العباسية متجها الى مركز "الصف" بالجيزة، يتقدم تارة الى الامام ثم يتراجع الى الخلف، والراكبون لا يملكون شيئا ازاء هذه الرحلة الاجبارية.. ومع حلول موعد الغداء تقاسموا السندويتشات التى كانت مع بعض الركاب، بينما أخذ الزعماء

يتبادلون رواية ماحدث لهم منذ أيام قليلة سابقة عندما توجهوا الى مدينة بنى سويف للاجتماع بالناس هناك..

كانت بنى سويف هى المدينة الأولى التى فكروا فى التوجه اليها، ونشروا ذلك فى الصحف.. وعندما وصلوا الى محطة المدينة، وجدوها خالية إلا من رجال البوليس، الذين منعوا المواطنين من دخول المحطة ومنعوا الزعماء من مغادرة القطار منذ وصوله وحتى حلول الظلام، حيث تحرك عائدا بهم الى القاهرة دون أن تطأ أقدامهم أرض بنى سويف.. لكنهم لم ييأسوا وأعلنوا عن اعتزامهم التوجه الى طنطا فكان نصيبهم هذه المرة تلك الرحلة الغريبة فى هذا القطار العجيب الذى يسرع ويبطىء ويتقدم ويتراجع كأن من يقوده سائق معتوه لا يثبت على رأى!!..

وأدركوا أنه كان يتحتم عليهم السفر فى كتمان وسرية حتى يفوتوا على الحكومة عرقلة جهودهم، وبالفعل قرروا أن يلزموا الكتمان فى خططهم التالية، وأن يسافروا بسياراتهم الخاصة متجنبين قطارات الحكومة العجيبة..

ومع حلول الظلام، وعند محطة المعسكر بين المعادى وطره انتهت الرحلة، وأمروا بالنزول، فافترقوا على موعد لاحق، حيث فوجىء أهالى بنى سويف بالزعماء بينهم، ماهى الا أقل من الساعة حتى كانت المدينة كلها قد علمت بالخبر وتوجهت الى

حيث الزعماء، وكان مجرد تجمعهم بهذا العدد الضخم يشكل موافقة منهم على مقاطعة الانتخابات الصدقية، وانتهى اليوم باقتياد الزعماء معتقلين الى القاهرة حيث أفرج عنهم بعد تحقيق هزلى.

وجرت الانتخابات فى يونيو ١٩٣١ حيث سيق المواطنون الى اللجان، وحيث زورت كشوف بأسماء كان بعضها قد فارق الحياة وكان بعضها الآخر لم يولد بعد، لكن جميعهم انتخبوا مرشحى الحكومة الحديدية!!.. وفى بجاحة فائقة أعلن صدقى باشا ان الانتخابات قد سارت سيرا حسنا وفى جو هادىء، وان حوالى ٧٠ فى المائة من عدد الناخبين قد توجهوا الى الصناديق ليعلنوا عن تأييدهم لأعضاء حزبه، وبذلك يكون قد فاز بالأغلبية الساحقة فى مجلسى الشيوخ والنواب..

بهذه الطريقة كون صدقى باشا مؤسساته ذات الأسماء البراقة التى لم تكن سوى أدوات سلطة واستبداد.. وبذلك يكون هو رائد تزوير الانتخابات فى تاريخ مصر الحديثة وله حق الريادة، إذ كانت له سابقة مماثلة ارتكبها عام ١٩٢٥.. وكانت سذاجة منه عندما توقع ان يصدقه الناس أو حتى الانجليز.. ولأنه لجأ الى العنف، ولان العنف يولد العنف، ولان المقاومة السلمية صارت غير مجدية، فلم يجد الناس أمامهم غير الاغتيالات السياسية، فقتل رئيس مجلس النواب المزور، وألقيت

القنابل على أنصار الوزارة ومحاسيبها.. فاعتقلت الحكومة اعدادا ضخمة من المواطنين بتهمة التخريب والاعتداء على الدستور فيما سماه صدقى باشا بالحرب الأهلية فى مصر "!!".

غير ان كل هذا العنف لم ينقذ صدقى باشا من الاقالة فى سبتمبر ١٩٣٣ بعد ان أضاع من عمر الوطن حوالى الثلاث سنوات.. وبمجرد زوال هيلمان الحكم عنه طرد من رئاسة الحزب الذى هو منشئه والمسمى بحزب الشعب ليبقى الشعب نفسه، الذى أجبر الملك على اعادة دستور ١٩٢٣ مرة ثانية ليوقع النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦، والتى نصت على خروج الانجليز من الجيش والبوليس وعلى الغاء الامتيازات الأجنبية بحيث يخضع الأجنبى لما يخضع له أصحاب البلاد، وصارت مصر عضوا بعصبة الأمم التى هى السلف المتنيح لهيئة الأمم المتحدة الحالية.. كما جاء فى المادة الثامنة من هذه المعاهدة مايلى: "بما ان قناة السويس التى هى جزء لا يتجزأ من مصر هى فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات، وهى أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية.. فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى قد أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة، يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة

والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة فى المنطقة المحددة بملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة"..

وبذلك تكون هذه المعاهدة قد أعطت صفة الشرعية للاحتلال البريطانى لمدن القناة.. وبسبب وجودهم فى أرض مصر أثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت هذه المدن للهجوم من قبل قوات المحور، وفيما بعد سوف تصير هذه القوات شوكة فى ظهر الجيش المصرى المتجه للحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨..

وبعد سنوات انسحب الجنود الانجليز من المدن المصرية تجنبا لاستفزاز الأهالى، تمركزوا حول قناة السويس، التى تكون بهذا قد بقيت مستعمرة انجليزية الى جانب ذهاب ايراداتها الى المستغلين الأوروبيين وللانجلترا وفرنسا نصيب الأسد.

◆ الفصل الثالث عشر ◆

فصل من مأساة الوعد .. وأكثر من أكتوبر ..

فى أكتوبر ١٩٥١ ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ ـ رغم ارادة الملك ـ وطالب بانسحاب الانجليز من القناة، ورفضوا بحجة أن الالغاء تم من طرف واحد، وأيدهم الأمريكان والفرنسيون، وعلى الفور تحركت المظاهرات فى كل مكان تطالب بالسلاح، واستقال العمال العاملون فى ثكنات الانجليز، وامتنع معظم الموردين عن امدادهم بالأغذية، وراحت الصحف تنشر اسماء المتعاونين معهم فى قوائم سوداء.. واستمر الكفاح حتى يناير ١٩٥٢ حيث وقعت مؤامرة حريق القاهرة، التى اشتعلت فى ٢٦ يناير من غير ان تجد الحكومة من يوقف المشعلين، إذ كانت قيادة الجيش والبوليس يومها فى قصر عابدين على مائدة الملك فاروق الأول، والذى ألغى البرلمان وأقال وزارة النحاس بعد أن دفعها الى اعلان الأحكام العرفية.. وظن هو ان الحركة الوطنية قد أخمدت وانه قد صار الحاكم المطلق شأن اجداده، وظن الانجليز انهم باقون.. وأصبح واضحا أن البلاد فى حاجة الى ثورة جديدة، خصوصا وأن عنصرا خطيرا بدأ يلعب دوره فى المنطقة له صلة وثيقة بقناة السويس..

ففى أثناء الحرب العالمية الأولى صدر وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وفيما بين الحربين الأولى والثانية كانت فرنسا قد انفردت بأرض سوريا ولبنان، وكانت بريطانيا قد انفردت بأرض مصر والعراق وفلسطين، فسمحت بهجرة اليهود الى فلسطين تمهيدا لقيام دولة اسرائيل.. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا قد عزمت على أن ترث الاستعمار القديم، وكانت قد صارت الدولة الأقوى والأغنى فى الغابة الأرضية، فنقلت الحركة الصهيونية اعتمادها من بريطانيا اليها..

وفى أكتوبر ١٩٤٥ طلب الرئيس الأمريكى ترومان من الانجليز بأن يفتحوا أبواب فلسطين فورا لدخول مائة ألف مهاجر يهودى.. وبعد أقل من عام صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلنت انجلترا انسحابها منها وفى اليوم التالى مباشرة أعلن رسميا عن قيام دولة اسرائيل!..

وقد أرادها الغرب ركيزة مستديمة له، أوروبية الطابع بين بحر من البلاد العربية المنهكة، وأرادها أيضا عصا غليظة يضرب بها أية حركة تحرر عربية ضمانا لاستمرار سيطرته على بترول المنطقة وعلى قناة السويس، ووقت انشائها لم يكن لدى العرب جيوش ذات قوة تذكر، وكان الجيش المصرى جيش

تشريفات ينقصه السلاح الحديث والتدريب الجاد، وكانت مصر نفسها ممزقة نتيجة لدكتاتورية الملك ولتعدد الحكومات غير الدستورية. لذلك فقد تردد رئيس الوزراء النقراشى باشا عام ١٩٤٨ فى الزج بالجيش المصرى الى حرب فلسطين، وحتى لا تكون القوات الانجليزية بقناة السويس وراء ظهره بمجرد عبوره الى صحراء سيناء.. لكن الملك أمر صديقه حيدر باشا قائد الجيش باجتياز الحدود ــ فى نفس يوم اعلان اسرائيل ــ دون علم رئيس الوزراء ودون اقرار من البرلمان، قاصدا من وراء ذلك استعادة بعض هيبته وصرف انظار الناس عن المشاكل الداخلية بمشكلة خارجية، وامتصاص كرههم له حيث كانت الاغتيالات السياسية قد استفحلت بسبب عدم ثقة بعض الشباب المخلص فى القيادات، وبسبب فقدان الأمل فى جدوى الكفاح السلمى المشروع ضد طغيان السلطة..

كانت الحرب فرصة للملك لفرض الأحكام العرفية ولفتح أبواب المعتقلات على مصراعيها لاعتقال مئات الشرفاء.. لكن "الجيوش العربية" هزمت وبقيت دولة إسرائيل وتشرد مليون فلسطينى بينما كان غالبية المصريين فى فقر مفزع، وقلة مستغلة تعيش عيشة مترفة وتسمن من مصائب الوطن!..

صار واضحا أن العدو ليست إسرائيل وحدها وانما الاحتلال

الانجليزى على ضفة القناة والملك والرجعية فى قلب القاهرة.. ولهذا كانت أول قرارات ثورة ١٩٥٢ هو انشاء جيش وطنى قوى واصدار قانون الاصلاح الزراعى وطرد الملك واعلان الجمهورية ومصادرة أطيان أسرة محمد على واعادتها الى أصحابها من ذوى الجلاليب الزرق، والبدء فى مشاريع التصنيع الكبرى.. وأخذ أساس الوضع الاجتماعى يستدير لصالح الأغلبية..

وفى أكتوبر عام ١٩٥٤ وقع الرئيس جمال عبدالناصر مع الانجليز معاهدة الجلاء عن مدن قناة السويس".. وخرج الانجليز من القناة تحت ضمانة صنيعتهم إسرائيل، وعلى أمل أن ينجحوا فى ضم مصر الى أحلافهم العسكرية ــ وهى نوع من الاستعمار المقنع ــ وهى الأحلاف التى رفضها النحاس باشا من قبل، وعادت أمريكا وانجلترا تعيد عرضها على جمال عبدالناصر الذى رفضها أيضا وتسبب فى فشلها فى كافة أنحاء العالم العربى باستثناء بعض دول البترول..

خرج الجنود الأجانب وظلت الشركة الأجنبية تنهب دخل القناة دون مبرر.. والذى حدث أن مصر كانت فى حاجة الى توفير طاقة كهربية لتشغيل المصانع الضخمة المزمع انشاؤها، وكانت فى حاجة الى مزيد من مياه النيل لرى الأرض المزمع استصلاحها.. ومن أجل هذا كان لابد من بناء السد العالى،

وهنا كان الوقت قد حان لاعادة قناة السويس ـ أخيرا ـ الى أصحابها كى تنفق على بناء السد العالى، فأممها الرئيس جمال عبدالناصر بخطابه الشهير عام ١٩٥٦.. وهنا أيضا سوف يتأكد الهدف من انشاء دولة اسرائيل..

فمنذ قيام ثورة ١٩٥٢ وإسرائيل لا تكف عن الاعتداء على حدودنا، ثم راحت تلتهم المناطق المنزوعة السلاح كان آخرها منطقة "العوجة".. وكان الغرب يغرقها بالسلاح الحديث ويمنعه عن مصر وعن العرب، فلم يجد جمال عبدالناصر من بد سوى شراءه من الاتحاد السوفيتى، إذ كان لابد من وجود جيش قوى يحمى الحدود ويحمى منجزات البناء، وأعلن ذلك فى سبتمبر ١٩٥٥.. وفى الشهر التالى مباشرة أعلنت أمريكا استعدادها لبناء السد العالى، وكانت دراسة مشروعه قد تمت على أيدى أشهر خبراء المانيا الغربية وفرنسا وأمريكا وانجلترا، ولم تمض سوى شهور قليلة حتى عادت أمريكا تنسحب من المشروع فجأة، بل وراحت تشهر بالاقتصاد المصرى على انه عاجز وخرب.. وكانت أمريكا غاضبة من رفض مصر للانصياع تحت راية احلافها العسكرية.. وكان الرد المصرى بعدها بقليل هو تأميم القناة، إذ كان الوقت قد حان لأن تكون فوائدها لبلدها تنفق منها على بناء السد العالى، الذى حل فيه

المهندســون الروس محل الأمــريكان.. ومن أجل هذا كله حــدث ماسمى بالعدوان الثلاثى..

فى أكتــوبر من نفس عام تأمــيم القناة تقدم جــيش اسرائيل عبــر سيناء المصرية بينمــا أساطيل انجلترا وفــرنسا تطبق على القناة المصرية فى غزوة بربرية قصد منها اهدار استقلال مصر والعودة الى اســتلاب الغرب لدخل الملاحــة.. لكن أمام مقاومة المصريين المستــبسلة وتحت ضغط الظروف الدولية المعــاكسة ومعــارضة روسيــا وأمريكا، كل دولة لأسبــابها الخاصــة، فشلت هذه الغــزوة الثلاثيــة واندحرت، وتحــولت الى مــسمــار أخيــر فى نعش الاستعمار البــريطانى.. وبهذا تكون أرض القناة قد قبرت والى الأبد الامبــراطوريتين القــديمتين، الفــرنسيــة والانجليزية، واللتين تحكمتا فى بلاد الأرض لعدة قرون..

عــادت الملاحــة الى القناة بــعــد أن أغلقت لأكــثــر من العــام، لتواصل مصر جنى ثمارها من العــملات الأجنبية، ولتؤدى دورها فــى خدمــة الملاحة الدوليــة، حيث أثبت المصريــون نجاحا مــؤكدا فــى ادارة القناة وأظهــر المرشــدون المصريون مــهــارة فائقــة فــى تســيــيــر قــوافل السفــن على طول مجــراها من الســويس الى بورســعــيد وبالعكس.. ثم راحت الهــيئــة المصرية تعــد المشاريع لتــوســيع وتعــمــيق المجــرى كى يتــلاءم مع مــتطلبــات الملاحــة

العصرية ومع اتجاه العالم الى بناء السفن الكبرى ذات الغاطس العميق..

ولم يوقف هذه المشاريع سوى حرب ١٩٦٧ التى سماها العدو غرورا حرب الأيام الستة!!.. وفيها قامت اسرائيل بدورها منفردة ـ ولكن بمساعدات مستترة ـ لتحتل سيناء.. بعد أن ظلت تعد لهذه الحرب منذ عام ١٩٥٧ أى لمدة عشر سنوات.. رغم هذا فان انتصارها لم يكن بسبب مهارة جنودها وعبقرية مخططيها، وانما بسبب الاهمال والقصور الذى كان متفشيا بين قادة جيشنا، الذين انغمسوا فى الاهتمام بترأس نوادى كرة القدم وفى القفز الى المناصب المدنية الكبيرة، ضاربين عرض الحائط بالكفاءة، وبقيمة التخصص التى هى سمة عصرنا الشديد التركيب.. ولم يكن الذنب ذنب جنودنا أو ضباطنا، وقد استشهد منهم ما يقرب من العشرين ألف شهيدا، تحت نار شمس يونيو وفوق رمال سيناء وبرصاص ونابالم طائرات العدو المطمئنة!!..

وبعد ستة أيام كان جيش إسرائيل متمركزا على ضفة القناة الشرقية..

الفصل الرابع عشر

لمحات من أكتوبر العبور ومن بعض ما فعله أبناء الصمت في ست ساعات

المتأمل فى حالة قناة السويس يجد أن ضررها على مصر كان أضعاف أضعاف فوائدها.. فمنذ افتتاحها الأول فى عهد الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٩ وايراداتها تذهب الى أصحاب الأسهم الغربيين ولمدة ثمانين عاما متتالية، أى حتى عام ١٩٥٦ عندما أممها الرئيس جمال عبدالناصر فى ذكرى ثورة يوليو.. وما هى إلا شهور قليلة حتى وقع العدوان الثلاثى فتعطلت الملاحة بها لأكثر من العام، الى أن أعيد افتتاحها مرة ثانية بعد انسحاب جيوش المعتدين، وبدأت مصر تأخذ دخلها، ولكن هذا لم يدم سوى عشر سنوات فقط، والى أن وقعت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، ومنذ هزيمتنا والقناة مغلقة لستة أعوام متتالية، والعدو يرابط على الضفة الشرقية لها..

ستة أعوام كاملة حدثت فيها ملايين الوفيات والولادات والقبلات والاندهاشات والأكاذيب والبسمات، وسمعنا خلالها سماجات لا حصر لها ومنغصات لا آخر لها.. ودك العدو فيها مدن القناة الثلاث وأحرق معامل تكرير بترول الزيتية.. وتم فيها العديد من اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وصدرت عشرات التصريحات تستنكر الاحتلال الإسرائيلى، وتستنكر اشتراك قواتها البحرية والجوية فى مناورات الأسطول السادس الأمريكى بالبحر المتوسط، دون جدوى..

ولهذا كانت القاعدة التى أكدت وجودها هى أن مصائر الأمم لا تتحدد بالخطب النارية أو باللقاءات السياسية وعناق القادة، وانما تتحدد حسب محصلة القوى الموجودة فى واقع الحياة.. فقد صدر أكثر من قرار من مجلس الأمن ومن هيئة الأمم المتحدة يطالب اسرائيل بالانسحاب من الاراضى المحتلة، أى من سيناء وغزة والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن، ولكنها لم تبال، ولماذا ترضخ وهى تعرف ان الجيوش العربية أضعف منها، ومقابل أى ثمن تنسحب؟!

كانت هذه القاعدة هى التى جعلتنا ننكمش على جراحنا صامتين، ونعمل وننتج ونعيد بناء جيشنا دون جعجعة أو طنطنة.. وظل جنودنا وضباطنا (ومعظمهم هذه المرة من

المؤهلين علميا. فالعلم هو لغة العصر والعصور التالية) يعملون فى صمت ويستوعبون السلاح الجديد وفنون الحرب الحديثة فى صبر..

فى بداية الهزيمة كان جنود العدو يسبحون فى القناة دون خوف، وكان جنودنا يرونهم يدنسون مياهها ولا يملكون سوى كتمان الغيظ. وكانت أوامرهم صارمة تنحصر فى كلمتين "ضبط النفس".. وبعدها جاءت مرحلة الردع وكانت تعنى الرد على العدو إن هو فتح نيرانه بنيران مماثلة. فامتنع جنوده عن السباحة فى مياه القناة وعن الظهور خارج ملاجئهم خوفا من رصاص قناصتنا..

وعندما انهمك العدو فى بناء مواقعه الحصينة جدا التى سماها خط بارليف، والتى بلغت تحصيناتها حدا فاق جميع تحصينات جيوش النازى. راحت أجهزة اعلامه تجعجع فى جميع أنحاء العالم بأنهم قد شيدوا الخط المنيع الذى لا يمكن اقتحامه.. لكنهم فوجئوا بهجمات ليلية من صاعقتنا. تعبر وتقتحم وتنقض بالسلاح الأبيض. ثم فوجئوا بهذه الهجمات تقتحمهم نهارا تحت ضوء الشمس. وبالمدفعية تصب نيرانها عليهم لساعات طويلة فيما سمى بحرب الاستنزاف. ففقدوا أعصابهم. وأخذت طائراتهم الفانتوم تغير على المواقع المدنية. على عمال مصانع أبى زعبل، وعلى أطفال مدرسة بحر البقر

الابتدائية.. وعلى الناس فى سوريا ولبنان والأردن..

وفى خلال هذه السنوات الست مضت خمسون عاما على ثورة ١٩١٩، وصعد الانسان الى القمر لأول مرة حيث وصفه رائد الفضاء أنه كشاطىء رملى قذر عليه آثار أقدام وتنتشر فوقه الفوهات البركانية والجبال الوعرة. وفيها واصل عالم المصريات "ايمرى" تنقيبه ربما للموسم السادس على التوالى فى محاولة لاكتشاف مقبرة "ايمحوتب" الذى رفعه المصريون القدماء لنبوغه فى العلم والطب الى مرتبة الآلهة مع أنه لم يكن من نسل الملوك الفراعنة..

وخلال هذه الأعوام الستة أيضا زاد الضغط على أعصاب الناس حتى قارب الانسان أن يصاب بضغط الدم أو بتصلب الشرايين. وزاد نفاد الصبر وعلى الأخص عند الشباب والطلبة. كما استفاد بعض الانتهازيين من ظروف الركود وأثروا من وراء ذلك. وانتشرت الأفلام الرديئة والفجة. وحدثت الاشتباكات العنيفة على جبهات القناة والجولان وربما الأردن. وقامت دولة جديدة لم تكن موجودة من قبل سميت بنجالاديش. انتشرت موضة الملابس القصيرة جدا ثم موضة الملابس الطويلة جدا. وسمعت آلاف النكت. واكتشف عالم ايطالى أن الحب هو خير عقار ضد تصلب الشرايين..

ستة أعوام حدثت فيها ملايين الأحداث الهامة والصغيرة..

والعـــدو يزداد غـــرورا ويعلن أنه أقـــوى قـــوة حـــربيــــة فـى الشـــرق الأوسـط. وانه لـن تقـــوم قائمـــة لأية دولة عـربيـــة وخاصـــة مـصـــر أكـبرها!..

الى أن جاءت الساعة الثانية مـن بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ عندما اخترقت أكثر مـن ٢٢٠ طـائرة نفاثة مـصرية سـماء القناة لتدك جـميع مـراكز قيـادة العدو فى سينـاء المصرية، بما فـيـهـا مـراكــز الســيطرة عـلى إدارة الطـيـران والـدفـاع الجـوى والشـوشـرة. ولتدك معها غـروره وغطرسـته ووهمه الذى صدقه مـن كـثـرة الترديد والقـائل بأن جيشــه لا يقهر.. ولتـكسـر لدينا حاجـز الخوف والهزيمة والمهـانة والضياع الذى عـانت منه أمتنا العربية ومـصرنا الغاليـة.. ولتندفع فى أعقابها جموع هادرة من جنود مـصـر الى قناة الســويس.. حـيث انتـعـشت الميـاه وهى تسـتقـبلهم فى مـئـات القـوارب، وهم مندفعـون بقـوة وبأس مـقـتحـمين عـابرين الى الضفـة الشرقـية من قناة الســويس العتيدة..

ما أن وطأوها حـتى استداروا يقـتحـمون دشم العدو المنيـعة ويحطمـون دباباته التى حـاولت التـدخل.. ومـا هى إلا ساعـات فقط حـتى كـانوا قد قضـوا على اسطورة خط بارليف الذى لا يقتحم بأن اقتحموه..

هكذا كان كلام الأبطال من أبناء الصمت بالفعل وبالعمل..
وهكذا كان الفرد منهم يواجه بصاروخه مدرعة حديدية للعدو أو دبابة عاتية له ويدمرها فى أقل من الثانية لتتحول الى مسخ من الحديد المنصهر. وهكذا كان زميله يتصدى بصاروخ من فصيلة "سام" لطائرات العدو ويسقطها حتى فقدت اسرائيل أمهر طياريها فى الساعات الأولى للتحرير المصرى..

هكذا فى ست ساعات فقط ــ وبعد صمت ست سنوات ــ تمكن أبناء الصمت من دحر هزيمة الأيام الستة..

وفى الذكرى الثامنة لهزيمة ١٩٦٧ ــ أى فى يونيو ١٩٧٥ ــ افتتح الرئيس أنور السادات القناة للملاحة الدولية للمرة الثالثة فى تاريخها الدرامى الأليم، لتستقبل سفن العالم بمرشدين مصريين وبإدارة مصرية..



◆ الفصل الخامس عشر ◆

الثراء والأمن في الشرق العربي وملاحظات ختامية ..

بذلك تبقى إسرائيل هى أكبر خطر معاصر يواجه قناة السويس.. وقد خسرت مصر منذ ١٩٦٧ ملايين الجنيهات من بترول سيناء ومن دخل القناة.. ثم انفقت الملايين فى تطهيرها وفى اعادة بناء مدنها.. وكادت قوافل النفط العالمية أن تتحول الى المحيط الهندى هاجرة البحر الذى تقع عليه موانينا..

لذلك يصبح واضحا الآن – وبديهيا – ان حماية القناة تستدعى تعمير سيناء وتسليحها وتقويتها. فحدود مصر تقع عند آخر سيناء وليس عند مدن القناة. ومن العار أننا تركنا شبه جزيرة سيناء التاريخية لآلاف السنين صحراء قاحلة. بينما قدر من مياه النيل يمكن أن يحولها الى مصدر رزق وثروة زراعية لا حد لها!..

والطريق الوحيد لتقوية مصر والعالم العربى هو تحويل الكم العربى الشهير الى كيف فعال، وذلك لا يكون إلا عن طريق العلم والدأب فى سبيله، وعن طريق تسخير المال العربى من أجل التصنيع والتسليح، وايجاد مناخ ثقافى مستنير، بالحرية وضمان حقوق الانسان..

ولنتذكر دائما أن ذئاب الغابة الأرضية مازالت موجودة، مخالبها الآن علمية من أقمار صناعية وهندسة وراثية، وأسلحة فتاكة خارقة للجماد والأحياء والعقول..

القاهرة ١٩٧٦



◆ الفصل السادس عشر ◆

فصل من مأساة الوعد .. وأكثر من أكتوبر ..

مافعله بعض نوابغ المصريين من رفاعة إلى عبده والآخرين.
فى حوالى مائة من السنين لتفتيح عقول البنات والبنين

تشغل المنطقة العربية نصف حوض البحر المتوسط، هى دول المغرب العربى ومصر والشام، والشام فى التاريخ تشمل فلسطين ولبنان وسوريا. وكانت مصر فى فترات المجد الفرعونى تهيمن على معظم الشام، فلما فقد الانسان المصرى حريته الشخصية وملكة المبادرة، توقف عن الابتكار والابداع، وانهارت الدولة تدريجيا حتى شاخت!!.. وكان ذلك قبل الميلاد!

ظهرت امبراطوريات أخرى هيمنت على حوض البحر المتوسط، كله أو معظمه، لينتقل مركز الحكم من مصر اليها.. مثل دولة الفرس (إيران) التى دحرها الاسكندر المقدونى، لتسيطر أسرة البطالمة على حكم مصر من مدينة الاسكندرية ولحوالى ثلاثة قرون، انتهت بالملكة كليوباترة الذكية الجميلة.. بعد ذلك سادت الامبراطورية الرومانية والعاصمة روما.. فالأمبراطورية البيزنطية والعاصمة القسطنطينية (اسطنبول الآن).. ثم العرب والدولة الأموية

والعاصمة دمشق. فالدولة العباسية والعاصمة بغداد. وفى زمنها استقل بحكم مصر أحمد بن طولون وبعض أسرته ثم الأخشيد وبعض أسرته.. حتى نقل الفاطميون عاصمتهم من المغرب العربى الى القاهرة. وامتد نفوذهم حتى فلسطين.. وفى سنة ١١٧١ أخذ الحكم منهم صلاح الدين الأيوبى الكردى.. فلما أكثر نجم الدين أيوب من شراء العبيد البيض أو المماليك وجعلهم قواته العسكرية. استولوا على الحكم منذ عام ١٢٥٠ ــ ومازالت العاصمة هى القاهرة ــ ابتداء من شجرة الدر الى "الظاهر برقوق" ١٣٨٢.. وآخرهم "الغورى" ومعه "طومان باى".. وجميعهم من أصول تركية أو شركسية أو تترية أو ألمانية أو روسية أو قوقازية!!.. أو أى جنسية عدا المصرية!!..

حتى جاءت جحافل الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وغزا زعيمهم سليم الأول المنطقة كلها. وحكم الدولة المصرية بواسطة بقايا المماليك بعد أن باسوا الأرض تحت قدميه. وماهى إلا سنوات قليلة واستعادوا نفوذهم بحكم خبراتهم القديمة. حتى صار الوالى التركى ألعوبة فى أيديهم!!..

طوال الأحقاب الطويلة السابقة التى تزيد على الألفى عام. أى أكثر من عشرين قرنا. ظل المصريون ممنوعين من حمل

السلاح وطبعا من حكم أنفسهم، فضاعت شخصيتهم القومية أو اهتزت، وتحولت الى تابعة بعد أن كانت قائدة، ومقلدة بعد أن كانت رائدة، وخصوصا بعد أن حكمهم قيصر روما ثم امبراطور بيزنطة باسم الدين المسيحى، وبعد أن حكمهم العرب فالمماليك فالعثمانيون ومن تلاهم باسم الدين الإسلامى!.. وجميعهم تقريبا نهبوا مصر وأذلوا شعبها وأهملوا صيانة النيل ومرافقها العامة!..

وفى فترتى الحكم المملوكى والحكم المملوكى التركى، ومجموعهما يقرب من ستة قرون، غرق المصريون فى أوحال التخلف والجهل وفقدان الهوية، وانعزلوا تماما عن مجريات الأمور فى العالم!! بينما كانت أوروبا مندفعة بقوة الى عصر نهضتها العلمية والصناعية، وبالتالى عصر هيمنتها الاستعمارية العسكرية على العالم!..

وبسبب احتكار السلاطين لملكية الأراضى الزراعية وماتبقى من صناعات، أصبح المصريون أجراء أقرب الى العبيد، وذبلت الطبقة المتوسطة، وهى الطبقة المبدعة التى نقلت أوروبا من ظلام الاقطاع الى النهضة الصناعية والعلمية التى نعرفها الآن!

ارهاصات أولى:

ثم أخذ شعاع ضوء خافت يظهر فى هذا الليل البهيم، مع حدوث أول انتفاضة فى جنوب مصر ضد الاستبداد المملوكى التركى، عندما تحالف الفلاحون والبدو بزعامة رجل اسمه همّام واستقلوا بحكم الصعيد عن القاهرة واسطنبول من ١٧٦٥ الى ١٧٦٩.. وقد وصف رفاعة الطهطاوى هذه الحركة الاستقلالية القصيرة بأنها جمهورية!..

بعد ذلك بحوالى ست سنوات، قام أهالى القاهرة عام ١٧٩٥ يقودهم مشايخ الأزهر بثورة شعبية، انتهت بتوقيع المماليك والأتراك على ميثاق تعهدوا فيه بالتزام العدل!.. وهكذا تهيأت أذهان المصريين الى أخذ حقوقهم بأيديهم، والى الاحساس بشخصيتهم الجماعية، وإن كانوا مازالوا مخدرين بالجهل والفقر والمرض، معزولين عن العالم الخارجى!!..

بعد ثلاث سنوات جاءهم من هذا العالم الخارجى نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ لاحتلال البلاد، فأحدثت حملته الفرنسية لهم صدمة حضارية، شرخت عزلتهم، وجعلتهم يكتشفون أن العالم الخارجى تطور وقفز الى الأمام، بينما هم بالانحطاط قانعون، على ظن أن هذه الحياة!!

شاهدوا السادة المماليك والأتراك بكل تجبرهم وغطرستهم

وأبهتهم وحاشيتهم، ينهزمون فى ساعات قلائل أمام جيش الفرنسيس ذوى الثياب الخشنة، ويفرون مذعورين، تاركين المصريين (الممنوعين من حمل السلاح) وحدهم يهتفون حسب قول مؤرخنا عبدالرحمن الجبرتى "ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف"!..

بهذا انفرط العقد المجحف غير المكتوب الذى كان قائما، فالمفروض أن المماليك والأتراك يتمتعون بمعظم خيرات البلاد فى مقابل حمايتها من الغزوات!!..

لكن المصريين رأوا أنظمة وأسلحة لم يكونوا على علم بها، وسمعوا من بونابرت كلاما جديدا عليهم، وهو يخاطبهم قائلا: "إن وطنكم مصر أخصب البلدان، الإقليم الأحسن الذى لا مثيل له فى العالم، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة أخذها العالم كله عن أجدادكم الأوائل"..

ثم وجدوا أنفسهم لأول مرة منذ عهد "أجدادهم الأوائل" يشاركون فى برلمان استشارى اسمه "الديوان العام" وفى وزارة مصغرة اسمها "ديوان القاهرة".. وعلى الفور استيقظت هويتهم من غيبوبة الجهل، وأخذت تسترد عافيتها.. وتنبهوا الى وضعهم الشاذ المهين: هم الشعب الطيب الذى يشترون العبيد المماليك بأمواله ليحكمونه ويذلونه باسم الدين!!

أول الصحوة:

كان زمن الحملة قصير، لكن تأثيرها الحضارى خطير على عقول المصريين. وحين أفل نجم نابليون سنة ١٨١٥ وانتهى الى منفاه بجزيرة سانت هيلانة، كان نجم محمد على (وهو مثله من مواليد عام ١٧٦٩) يسطع فى سماء مصر، بعد أن أباد المماليك، واندفع الى انشاءاته المعمارية والحربية، وأرسل بعثاته التعليمية الى أوروبا، معظمها الى فرنسا، وبنى عشرات المدارس والمعاهد الحديثة، وكل ذلك فى زمن قياسى، وبثروة مصر الذاتية، البشرية والمادية ودون قروض!..

وقام سنة ١٨٢٠ بتكوين أول جيش مصرى منذ أيام المجد الفرعونى قبل الميلاد.. وقد استعان بالكولونيل الفرنسى "سيف" الذى تمصر وحمل اسم سليمان باشا الفرنساوى، وتزوجت ابنته من محمد شريف باشا الذى سوف يترأس الوزارة عدة مرات، ويقوم بصياغة أول دستور مصرى، ليصبح اسمه "أبو الدستور"..

بهذا الجيش المصرى احتل إبراهيم باشا (وهو إبن زوجة محمد على) الشام كلها، وكاد يحتل تركيا ذاتها، ليعود مركز الحكم الى القاهرة، لولا تدخل بريطانيا التى كانت عظمى وقتها!

أما البعثات التعليمية فقد ضمت الخامسة منها سنة ١٨٤٤ محمد شريف باشا (أبو الدستور) والأمير اسماعيل بن إبراهيم باشا (الخديوى اسماعيل فيما بعد) وعلى مبارك (صاحب الخطط التوفيقية) وغيرهم..

أما البعثة الأولى الى فرنسا ١٨٢٦ فقد شملت أربعين مبعوثا، توزعوا لدراسة علوم الحرب والبحرية والقانون والطب والسياسة والهندسة والتعدين والرى والميكانيكا والطباعة والكيمياء. وقد ضمت هذه البعثة شخصية مصرية فذة من صعيد مصر هو رفاعة رافع الطهطاوى. ذهب ليؤم المبعوثين فى الصلاة، فسبقهم الى تعلم اللغة الفرنسية والى استيعاب التغيرات الاجتماعية والفكرية الهائلة التى عاصرها هناك. فصار رائد نهضة العلوم والآداب فى عصر محمد على، وكان أول من كتب باللغة العربية عن الديمقراطية والدستور ونظم الحكم الحديثة، وعن ضرورة عمل المرأة.. كما حاول إيقاف نهب الآثار المصرية.. وأنشأ مدرسة الألسن لتدريس اللغة العربية والفرنسية والفارسية ثم الايطالية والانجليزية، وعلوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية..

وعن طريقه وزملائه وتلاميذه، بدأ عصر النهضة المصرية ثقافيا وعلميا، وراح المتعلمون يجاهدون لتقليل الفارق بين

تخلف أهاليهم الفادح والتقدم الأوروبى الشاطح!.. غير أن المشكلة كانت فى انعدام الحرية!.. وعبرة التاريخ تؤكد أن عقل الانسان لاينطلق ولا يبتكر إلا إذا كان صاحبه حرا.. وكان محمد على طاغية، حرم المصريين من ملكية الأراضى الزراعية والمناصب الكبرى المدنية والعسكرية، وأوقفها على الأتراك والشركس!.. وكانت مصانعه قد أنشأها لخدمة فتوحاته الحربية، فانهارت بانهيار الفتوحات، لأنها لم تكن نتاج التطور الطبيعى للطبقة المتوسطة التجارية مثلما كان الحال فى أوربا..

وبعد انكسار حلمه التوسعى، فرضت انجلترا وأوروبا على مصر سياسة الباب المفتوح، أى فتح أسواقها لبضائعهم دون قيد!.. فانهارت تماما الصناعة المصرية، ووقعت التجارة فى قبضة الأجانب!.. لكن أجنبيا واحدا منهم لم يجرؤ على مخالفة لوائح محمد على.. عكس ذلك كان الحال فى عهد خلفائه، عباس الذى كان جاهلا لوطيا يهوى الغلمان، واغتيل سنة ١٨٥٤ بيد اثنين منهم، بعد أن أغلق معظم مدارس أبيه، وبدأ يمد أول خط سكة حديدية بين الاسكندرية والقاهرة بواسطة مخترع القطارات نفسه.. وكانت بذور التنوير قد نمت واشتد عودها فى عهد أبيه..

بعد عباس جاء سعيد الضعيف أمام الأجانب، فتوافد النصابون والمرابون ينهبون ويبتذون!.. وعندما وافق على مشروع قناة السويس بدأت كارثة ديون مصر!.. لكنه أمر بترقية المصريين فى الجيش الى رتب الضباط لأول مرة، وعندما أمر بترقية أحمد عرابى سنة ١٨٦١ من جندى عادى الى رتبة عقيد فى قفزة واحدة، بدأ العد التنازلى لحكم أسرة محمد على!.. وكانت مصر حتى ذلك الوقت شبه مستقلة، وتدفع الجزية للباب العالى أى للسلطان التركى فى اسطنبول والذى يزعم انه أمير المؤمنين!

الدستور والصحافة:

تفاقمت الديون فى عهد الخديوى اسماعيل!.. لكنه أنشأ آلاف المدارس الحديثة والمعاهد المتخصصة، ومدرسة للخرس والعميان، وأول دار أوبرا فى الشرق (والتى احترقت فى عهد الرئيس أنور السادات)، وكان الحاكم الشرقى الوحيد الذى أنفق على تأليف وتلحين أوبرا عايدة للموسيقى فردى عن حكاية لعالم المصريات ماربيت.. وفى عهده صدر أول طابع بريد سنة ١٨٦٠.. وانشئت أولى مدارس البنات، مدرسة شيدتها احدى زوجاته، ومدرستان شيدتهما بطريركية الأقباط..

لكن الخديوى إسماعيل كان ميالاً للضباط من ذوى الأصول

التركية والشركسية، رافضا للمصريين الذين رقاهم سعيد باشا من تحت السلاح، فحاول طرد ٢٥٠٠ ضابطا من بينهم أحمد عرابى، فى وقت كانت الحركة الوطنية فى ذروتها، فاجتمع سخط المدنيين مع غضب العسكريين، ضد مزاحمة الأجانب للمصريين فى الوظائف والتجارة، وصار شعار المتعلمين لأول مرة منذ انهيار المجد الفرعونى هو: مصر للمصريين، والقائد هو أحمد عرابى الذى كان يجيد القراءة والكتابة والحساب والخطابة الجماهيرية، وتنقصه خبرة السياسة والعلوم العسكرية!!..

وبعد أن كان مجلس الشورى (البرلمان) استشاريا وبالتعيين، صار بالانتخاب والحكومة مسئولة أمامه الى حد معقول. فلزم وجود دستور يكون الفيصل بين الحاكم والرعية. وبدأ محمد شريف فى صياغة مواده. لكن انجلترا كانت تتربص بمصر، ولا تريد أن يحكم الشعب نفسه حتى تظل مصر ضعيفة!.. وكان أحد وزرائها قد قال ليلة إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩: "لقد حان أوان احتلال مصر".. وظلت العشر سنوات التالية تجهز لهذا الاحتلال.. فلما وجدت الحكومة الوطنية تخطط لسداد الديون بالموارد الذاتية، ورأت الخديو اسماعيل يؤيد ــ ولو مرحليا ــ البرلمان والدستور، ضغطت على السلطان التركى فعزله

سنة ١٨٧٩.. وحل محله إبنه توفيق المطيع!!.. وسرعان مانفذت احتلالها عام ١٨٨٢.. ولم يكن بإمكانها حكم مصر ذات الحركة الوطنية بشكل مباشر، والتى مازالت خاضعة رسميا للسلطان التركى رغم ضعفه ووصفه برجل أوروبا المريض، فحكمت من خلال الخديوى توفيق ورجاله وبعض كبار الملاك والمتعلمين!..

فى عهد الخديوى اسماعيل الذى تآمر الانجليز لعزله، انتعش المسرح والصحافة، فظهر "يعقوب صنوع" الممثل الصحفى ورائد المسرح المصرى الحديث، والذى أطلق عليه اسماعيل وصف موليير مصر، فلما انتقد الاوضاع السياسية أغلق مسرحه ونفاه خارج مصر، فذهب الى باريس وواصل اصدار أول جريدة سياسية هزلية هى "أبو نضارة" سنة ١٨٧٧. وكان يتم تهريبها الى مصر فى زمن الثورة العرابية، ويقرؤها المتعلمون للأميين!..

ومن ناحية المظهر، هجر الأثرياء ملابسهم الشرقية والعمامة، وارتدوا الزى الافرنجى والطربوش التركى، وعند الأكل استعملوا الشوكة والسكين والمائدة بدلا من الطبلية والقعدة الأرضية!..

وحتى بداية حكم اسماعيل كانت الجريدة الوحيدة بمصر هى

الوقائع الرسمية، وسرعان ماصدرت الصحف الأدبية والعلمية، وجريدتان عسكريتان للجيش المصرى، وأكثر من عشر جرائد سياسية، منها جريدة الأهرام التى أصدرها الأخوان سليم وبشارة تكلا سنة ١٨٧٥، وهى الآن أقدم وأكبر الجرائد العربية، وبدأت سلسلة مجلات دار الهلال لجرجى زيدان ١٨٩٢ ثم مطبوعات دار المعارف، وبعض الجرائد بلغات أجنبية مازال يصدر منها جريدة: LA Progres Egyptien

وفى مطبعة بولاق الأميرية العريقة، طبعت لأول مرة أمهات كتب التاريخ والتراث نقلا عن مخطوطاتها الأصلية بعد تحقيقها وتدوين هوامش الشرح، مثل تاريخ ابن خلدون ومقدمته، وقانون ابن سيناء فى الطب، وتذكرة داود الانطاكى وهى فى صيدلة الأعشاب..

وانطلق العقل المصرى الى الابداع ــ من بعد انتعاش حركة الترجمة ــ فأصدر محمد المويلحى كتاب "حديث عيسى بن هشام" فيه انتقاد درامى للحياة بعد الاحتلال، ويعتبره بعض النقاد ارهاصة أولى لفن الرواية العربية.

ونبغ فى الفلك والرياضيات محمود باشا الفلكى، وله رسالة عن المغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ الى المجمع العلمى بفرنسا، وقام برسم خريطة الاسكندرية القديمة

معتمدا على حفريات التنقيب التى قام بها..

حكمة التاريخ:

سرعان ماأفاق المصريون من صدمة الاحتلال ليبدأوا فى مقاومته، مع مواصلة زحفهم نحو التنوير. وكانت عجلته قد دارت وانطلق معها العقل المصرى.. ولم تكن عساكر الاحتلال بقادرة على اعادة الحركة الى الوراء، وصار واضحا أنهم راحلون مهما طال الزمن..

فى سنة ١٨٩٩ أصدر قاسم أمين (١٨٦٥ ــ ١٩٠٨) كتابه "تحرير المرأة" طالب فيه بالنهوض بالمرأة المصرية لتطوير المجتمع كله، ودعا الى سفورها وتعليمها ومشاركتها الرجل فى الحياة العامة، وقد أثار كتابه هذا جدلا عنيفا، فتولى الرد على معارضيه بكتابه الثانى "المرأة الجديدة" ١٩٠٦.

وإذا كان محمود سامى البارودى (١٨٤٠ ــ ١٩٠٤) هو الذى أعاد للشعر العربى حيويته من بعد طول تدهور، وأضاف اليه بعدا ذاتيا كان جديدا على القصيدة العربية، فإن أحمد شوقى (١٨٦٨ ــ ١٩٣٢) أضاف اليه المسرحيات الشعرية.. كما ظهرت حركة الشعر الحر تمردا على النمط القديم الرتيب، واعتزازا باكتشاف الفرد لذاته وثقافته الجديدة وتطلعه الى الحرية

والكرامة والعدالة..

على الجانب المضاد عمل المستعمرون الانجليز على تحويل مصر الى مزرعة أقطان لمصانعهم، واستفاد من ذلك ملاك الأراضى.. كما افتتحوا بنوكا خاضعة لهم كان منها البنك الأهلى الذى أودعت الحكومة فيه أموالها منذ اليوم الأول.. وجاء القرن العشرين ولم يرحلوا، وأسفروا عن خداعهم واعلنوا أنهم جاءوا ليبقوا، بعد ان كانوا يزعمون انهم أتوا فى مهمة مؤقتة لإعادة النظام والشرعية ضد عصيان عرابى!!

عندئذ أدرك المثقفون أن الاستقلال لن يتم إلا بالعمل الشعبى وتنظيم أنفسهم، فظهرت لأول مرة تجمعات حزبية لمصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد، ولكل حزب صحافته، وتكونت النقابات لتبدأ الحركة العمالية، وحدث التنبه الى أهمية البعد الاقتصادى فعقد الماليون المصريون سنة ١٩١١ مؤتمرا اقتصاديا طالبوا فيه بانشاء بنوك مصرية.. وتطور الوعى القومى وصارت الحركة الوطنية ضد انجلترا وتركيا معا.. ثم تدخلت الظروف الدولية مع ظهور بوادر الحرب العالمية الأولى، فأعلن الانجليز الأحكام العرفية يوم ١٨ أكتوبر ١٩١٤ (فى مصر وليس فى انجلترا!)، وفرضوا الرقابة على الصحف، ثم دخلوا الحرب ضد تركيا، وجروا معهم الجنود

المصريين، الى الصحراء الغربية وخلف خطوط القتال فى أوروبا وعلى ضفاف قناة السويس، وسخروا أكثر من مليون شاب فى تعبيد الطرق لهم بصحراء سيناء والشام!!..

اقترن كل ذلك باعلان الحماية على مصر وانهاء السيادة التركية نهائيا، فتغير لقب حاكم قصر عابدين من خديوى الى سلطان ثم ملك.. واعتبارا من ١٩١٧ والى يوم وفاته كان الملك هو فؤاد نجل الخديو اسماعيل، وزوجته نازلى هى حفيدة محمد شريف باشا (أبو الدستور) وأم فاروق آخر ملوك مصر!..

النصف الجميل:

بانتهاء الحرب العالمية الأولى، عاد المصريون يطالبون بالاستقلال التام، وماطل الانجليز، فاشتعلت ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول، وكانت ثورة شعبية رائعة شملت الريف والمدن.. حتى المرأة التى لم تكن تعرف طريقها الى باب الدار، شاركت فى الثورة بزعامة هدى شعراوى وزميلاتها، واستشهدت أول امرأة برصاص الانجليز هى شفيقة محمد!.. وصرن عضوات فى لجنة الوفد المركزية، وساهمن بعد ذلك فى جمعية المرأة الجديدة والهلال الأحمر المصرى (تأسس سنة ١٩١١)..

وكان نشيد هذه الثورة "بلادى بلادى" من تلحين سيد درويش، وهو نشيد مصر القومى حاليا، ولسيد درويش فضل تطوير

المسرح الغنائى..

وبعد أقل من عام كان طلعت حرب (١٨٦٧ ـ ١٩٤١) قد أسس بنك مصر ١٩٢٠ برأسمال وطنى وخبرة وطنية خالصة. ثم قام هذا البنك بانشاء أكثر من عشرين مصنعا وشركة كبرى تسبق أسماءها جميعا كلمة مصر. مثل شركة مصر للغزل والنسيج. شركة مصر للطيران.. لصيد الأسماك.. للأقطان.. للتأمين.. للأدوية.. للسياحة.. وغيرها.. وجميعها يعمل بنجاح حتى الآن..

كما أسس طلعت حرب أول ستوديو سينمائى فى افريقيا والشرق هو استوديو مصر. وأوفد البعثات الى ألمانيا وفرنسا لدراسة أفرع السينما.. (وكان المصريون قد عرفوا عروض السينما بعد اختراعها بسنوات قليلة جدا).. كما شيد مسرح الأزبكية على الطراز العربى. وكانت مسرحية الافتتاح هى "أهل الكهف" لرائد المسرح المصرى الحديث توفيق الحكيم.. وكانت أول مصرية وقفت على خشبة المسرح هى منيرة المهدية..

انتهت ثورة ١٩١٩ بفوز مصر باستقلال ناقص ودستور ١٩٢٣ الذى حد من سلطة القصر والأجانب بعض الشىء. وترأس سعد زغلول أول وزارة شعبية.. مع بقاء الانجليز فى بعض المدن

الكبرى وعلى قناة السويس!.. ولم تتوقف حركة التنوير، فقد أمر سعد بانشاء عشرات المدارس، نافسه فى ذلك بعض الأثرياء والجمعيات الأهلية.. وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده، عاصر فى صدر شبابه ثورة عرابى وعرف عيوبها، فآمن مثل استاذه بأن استقلال مصر يمر عبر الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى، وعبر تخليص الناس من الجهل والفقر والمرض.. وقد جعل لحزب الوفد فى جميع مدن وقرى مصر قواعد شعبية راسخة، ساعدته فى التصدى لطغيان الملك والمندوب السامى البريطانى..

وقاسم أمين مثل سعد زغلول من تلاميذ محمد عبده، كذلك أحمد لطفى السيد الذى رأس تحرير صحيفة "الجريدة" فى بداية القرن العشرين، فجعلها منارة للعلم والثقافة والتقدم، وعلى صفحاتها تعلم السياسة والكتابة معظم مشاهير القرن العشرين، أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وحسين هيكل وسلامة موسى.. ثم جاء يحيى حقى والحكيم ويوسف جوهر وغيرهم المئات..

وقد انجزت أجيال المثقفين المتعاقبة هذا التقدم الهائل فى زمن قياسى، استهله رفاعة الطهطاوى بنشر كتبه الرائدة..

شمل التطور قفزات هائلة فى مجالات الطب والهندسة

والفلك والصناعة والزراعة والرى. فنبغ أستاذ النسبية الدكتور مصطفى شرفة، والطبيب البارع نجيب محفوظ، وهذا الطبيب قام بتوليد طفل حمل إسمه تيمنا بعبقريته، كبر الطفل وأصبح روائيا عبقريا نال عام ١٩٨٨ جائزة نوبل للأداب..

وأتمنى أن ننالها فى العلوم..



◆ الفصل السابع عشر ◆

الطريق إلى الشمولية

ومن الحب ماقتل.. فأخذ الجمل
بما حمل فماذا يكون العمل؟

نعرف جميعا أن البقر وتنابلة السلطان تأكل وتشرب وتنام، وأن الإنسان الطبيعي يحتاج فوق الأكل والشرب والنوم، إلى ممارسة حريته الشخصية، وحقه فى إبداء الرأى دون خوف، والمشاركة فى تسيير أمور وطنه. وبدون هذا يخسر آدميته!..

وعبدالناصر من فرط حبه للشعب، منحه الشقة والمأكل والوظيفة، وخاف عليه من سوء استخدام الحرية فأراحه منها!..

أصدر أمرا ثوريا للمواطن المصرى نصه: ارفع رأسك ياأخى فقد مضى عهد الاستعباد. وأطاع المواطن. والذى اكتفى بالأكل والإنجاب ومتابعة كرة القدم عاش ومات فى سكينة. أما الذى طمع فيما هو أكثر من ذلك فقد رفع رأسه متلفتا حوله خوفا من العسس!..

وانتشرت نكتة سخيفة: أن مواطنا انفرد بصاحبه، وسأله إن

كان يعمل مخبرا سريا، فلما أجاب بالنفى قال: إذن لابد أن أكون أنا!..

معنى النكتة السخيفة ان نصف المصريين صاروا يتجسسون على النصف الآخر بمعدل واحد من كل اثنين!..

وقد أحب جمال عبدالناصر شيخنا توفيق الحكيم بسبب عبارة وردت فى رواية عودة الروح، تتحدث عن توحد الأمة عندما يصبح "الكل فى الواحد، والواحد فى الكل". فلما امتلك السيطرة تمنى أن يكون هو الواحد المعبر عن الكل!..

فصار الزعيم الأوحد، وكاتبه محمد حسنين هيكل هو الصحفى الأوحد الذى من حقه البحبحة من حين لآخر فى فى مقالاته.. واختزل الإعلام كل فن فى شخص واحد مع التعتيم على زملائه. الروائى الأوحد نجيب محفوظ، مطرب الثورة الأوحد عبدالحليم حافظ، وهكذا.. مع احترامى لنبوغهم جميعا..

وآفة العالم الثالث استخدام "أفعل التفضيل" فى مجالات الإبداع. والصحيح استخدام عبارة "واحد من أفضل".. توجد أسرع سيارة، أقوى قنبلة، أكبر قادة ــ أما فى الإبداع فلا تجوز هذه المفاضلة، لأنه لا يوجد مبتكر مثل الآخر لأنهم بشر ومبتكرون، وليسوا سيارة أو قارة!..

والحياة بدون تنوع وتعدد وتنافس تصبح مواتا!..
وإليكم التفاصيل كما عايشتها، وفى قولى بعض المظنة..

أولا: الوثوب:

استولى الجيش على السلطة سنة ١٩٥٢ تحت اسم حركة الضباط الأحرار، ثم تحت اسم الحركة المباركة، بينما ظل راديو لندن الخبيث يقول "انقلاب الصاغات" حيث كان معظم الضباط برتبة صاغ، واستمر لعدة سنوات لا يقول الرئيس جمال عبدالناصر وإنما البكباشى جمال عبدالناصر. ودفعت التفاهة راديو إسرائيل الى اذاعة وترديد أغنية رجاء عبده "البوسطجية اشتكوا" على أساس أن والد جمال كان يعمل بالبريد، مع أنها مهنة شريفة!..

ثم التف حول الضباط الشبان عدد من أساتذة الجامعات، بعضهم بدافع الحماس الوطنى، وبعضهم من غير الموهوبين علميا بدافع الطمع فى منصب الوزارة، الذى احتكره طويلا الباشوات والبكوات ومن هم أسوأ أو أفضل منهم، تحدثوا وكتبوا وأكدوا ان ماحدث ثورة وليس انقلابا..

وعلى البركة تحول اسم الحركة المباركة الى ثورة يوليو المجيدة!..

ثم راحوا يتباهون على الثورات الأخرى، وقالوا ثورة بيضاء خالية من إراقة الدماء، بينما الثورة الفرنسية قطعت

مقاصلها رقاب الملكيين ثم رقاب الثوريين!..

كنت صبيا فى الرابعة عشرة، وشاهدت فرحة الغالبية العظمى بزوال الملك وحاشيته ونظامه، ففرحت مثلهم.

أما لماذا نجحت حركة الضباط الشبان بسهولة، فلأن المناخ الاجتماعى كان مهيئا للتغيير، وغالبية الشعب كرهت النظام القديم واخفاقه وفساده. وكانت كارثة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل وهزيمة الجيوش العربية مازالت فى الأذهان، وقضية الأسلحة الفاسدة التى فجرها إحسان عبدالقدوس تثير السخط العام، الى جانب فضائح القصر، كما كان للسينما دور كبير، والذى يشاهد أفلام ماقبل ١٩٥٢ يجد عددا منها يسخر من أبناء الذوات على أنهم عاطلون يسكرون ويرقصون، ويحتقرون الفلاحين والعمال والفقراء، وهؤلاء شكلوا ٨٠٪ من الشعب. الى جانب الوعى العمالى والطلابى..

لكنى لمست مخاوف الكبار العقلاء.. وكانت بعض البلدان من حولنا يقع بها انقلاب عسكرى كل عدة شهور أو اسابيع، وكان الضابط الذى يستيقظ مبكرا قبل زملائه، يسارع الى الاذاعة بعدة دبابات ويذيع البيان رقم واحد.. يستثنى من ذلك ثورة الدكتور مصدق فى إيران والتى اجهضتها المخابرات الامريكية!..

كانت مخاوف العقلاء هنا مزدوجة، من أن تكون الحركة مجرد

انقلاب عسكرى يليه انقلابات. ومن التآمر الخارجى خصوصا ان القوات الانجليزية كانت مازالت متمركزة فى مدن قناة السويس. وللانجليز والأمريكان عملاء فى كل مكان. والعالم كله مستقطب بين الكتلة الشرقية بزعامة روسيا، والكتلة الغربية بزعامة أمريكا التى خرجت من الحرب العالمية الثانية مفتوحة الشهية للهيمنة على العالم كله!..

والمألوف ان الثورة يقوم بها الشعوب مثل ثورة ١٩١٩. لكن مبادىء حركة ١٩٥٢ العسكرية كانت جميعها أمنيات ومطالب شعبية: القضاء على الفساد، وعلى الاقطاع، إقامة حياة ديمقراطية سليمة.. وكانت فى مجملها مبادىء حزب مصر الفتاة فى شكله الأخير. وكان عبدالناصر يحب فتحى رضوان، والذى صار وزيرا عمل تحت رئاسته يحيى حقى رئيسا لمصلحة الفنون، التى كانت الأساس لوزارة الثقافة..

كانت حركة ١٩٥٢ بمبادئها أقرب الى الثورة، أبعد مايكون عن الانقلاب العسكرى، بشرط إقامة حياة ديمقراطية سليمة..

وانتظر الشعب تنفيذ الشعارات الجميلة..

ثانيا: المناورة:

كان عبدالناصر مناورا بارعا، لعب بالجميع من أجل تأمين

حركته. فى البداية تستر ورفاقه وراء شخصية محبوبة ذات ملامح مصرية طيبة توحى بالثقة، على عكس ملامح الملك التركية. هو اللواء أركان حرب محمد نجيب. طاف بجميع أنحاء مصر، يدعو الناس الى تأييد الثورة. وأنا شخصيا رأيته بالمنيا وأحببته..

وأذكر أن فلاحا عجوزا شاهد حشدا كبيرا من الناس يصفقون لضابط كبير يحيط به ضباط شرطة وجيش، فأخذته الشهامة وصاح هاتفا:

ـ يعيش جلالة الملك!

فقام المجاورون له بتنبيهه الى أن الملك لم يعد ملكا وغادر البلاد، فبادر الرجل بحركة تصحيح فورية، وهتف بنفس الحماس:

ـ يسقط جلالة الملك!

وقد استهلوا مطالبهم بضرورة اصلاح الجيش، ثم وجدوا جلالة الملك يرضخ ويعزل رئيس الوزراء نجيب الهلالى، ويعين على ماهر الذى طلبوه. كل ذلك يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان فاروق قد طلب دعم أمريكا لكن السفير "كافرى" خذله.

وكانت الاسكندرية مركز الأحداث، فالملك هناك، والحكومة فى مقرها الصيفى بحى "بولكلى". وكان من عادة الملك

والأعيان التصييف فترة بالاسكندرية ثم فى ربوع أوروبا لأن مصر حر!..

فى التاسعة صباح ٢٦ يوليو ١٩٥٢ تلقى الملك انذارا بمغادرة مصر قبل السادسة مساء، وبينما هو يحزم حقائبه مع ناريمان زوجته، كان زعماء الأحزاب يتوافدون على ثكنات مصطفى باشا يعلنون مباركتهم للحركة المباركة، وبلغة الملوك: مبايعتهم لها، وبلغة الحاضر وكرة القدم نضيف كلمتى بالروح والدم!..

كان منهم: أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، الدكتور محمد حسين هيكل صاحب أول رواية عربية "زينب". ابراهيم دسوقى أباظة. بهى الدين بركات، ابراهيم عبدالهادى رئيس وزراء أكثر من مرة، محمود محمد محمود، مكرم عبيد رئيس حزب الكتلة المنشق عن الوفد..

أما مباركة ومبايعة رئيس حزب الوفد ذى الجماهيرية الساحقة فقد تأخرت الى اليوم التالى، لانه كان يصطاف بربوع أوروبا مع زوجته الشابة لأن مصر حر. فعاد على الفور وتوجه مع سكرتير الحزب الشاب فؤاد سراج الدين، وقال لمحمد نجيب: أنه جاء بمجرد عودته ليزور محرر الوطن ومنقذ الشرف الوطنى..

بعد ذلك وصف النحاس الحركة المباركة بانها مثل "وابور زلط فالت" يدهس كل من وقف فى طريقه!.

وطبعا اغتر الضباط الشبان بأنفسهم ماداموا محررى الوطن ومنقذى شرفه.. فكان ان تلاعبوا بمنهج التاريخ الذى قرروه على تلاميذ المدارس، واختزلوه الى لمحة عن مصر الفرعونية، قفزا الى الفتح الاسلامى، الى احمد عرابى وهو ضابط من تحت السلاح، رأساً الى ثورة ١٩٥٢!..

وحدث التعتيم التام فى أذهان النشىء على أطول تاريخ فى الوجود!..

وانزوى النحاس باشا فى داره، يعانى العزلة والشيخوخة. وبعد عدة سنوات، وذات نهار شتوى مشمس، كان جالسا بحديقة منزله، عندما دخلت عليه تلميذة بمعهد الخدمة الاجتماعية، كان استاذها قد كلفها بعمل بحث ميدانى عن كبار السن الذين على المعاش. وطلبت منه بأدب أن يجيبها على سؤالين، فوافق..

كان السؤال الأول عن إسمه. فأجاب:

ــ مصطفى النحاس

وكان السؤال الثانى:

ــ قبل المعاش ياجدو، حضرتك كنت بتشتغل إيه؟؟

فأطرق النحاس صامتا، ثم قال بصوت حزين:

ـ إسألى أبو كى يابنتى!

وعندما مات اعتقلوا بعض من ساروا فى جنازته لأنهم هتفوا "لا زعيم غيرك يانحاس!".

أرادوا محو تاريخ نضاله الطويل بأستيكة. فلما مات ناصر وتولى السادات واعتقل "مراكز القوى" بأسهل الطرق. أخرج استيكة وسار بها على خط عبدالناصر ليمحوه!.

وصدر قانون تحديد الملكية ١٩٥٢ وكان حوالى ٢٥٠٠ شخصا يمتلكون وحدهم خمس أطيان مصر!..

وتقررت تخفيضات لايجار المساكن ثلاثة مرات على فترات. وهذه هى ببساطة أهم أسباب أزمة المساكن الحالية. فقد منحت الحكومة بقشيشا للسكان من أموال أصحاب البيوت!..

وأنشأوا محاكم مؤقتة اسمها محكمة الثورة ومحكمة الغدر.. رأسها ضباط ظرفاء من امثال أنور السادات وحسين الشافعى وجمال سالم. حاكموا رؤساء وزراء ووزراء وضباط شرطة وجيش وزينب الوكيل زوجة النحاس، ومدير مستشفى المواساة، والاتهامات تنحصر فى الاتصال بالأجانب والافساد السياسى!..

وفى اكتوبر ١٩٥٢ أفرجوا عن الاخوان المسلمين قتلة المستشار أحمد الخازندار رئيس محكمة جنايات القاهرة، وأفرجوا عن زملائهم قتلة النقراشى باشا رئيس الوزراء. فكسبوا أو حيدوا

الجماعة. وفى ١٤ يناير ١٩٥٤ حلوها وحاكموا كوادرها.

وهم إذا كانوا لم يسفكوا الدماء. إلا انهم اصدروا سنة ١٩٥٤ قرارات بالعزل السياسى لأهل الحكم القدماء، وهذا معناه أن المعزول يأكل ويشرب وينام ولا يرشح نفسه أو ينتخب أو يبدى رأيه، وهذا اغتيال بطىء لآدميته!..

وستة من المعزولين كانوا ضمن اللجنة التى صاغت الدستور المؤقت ١٩٥٣ منهم الفقيه القانونى عبدالرازق السنهورى ومكرم عبيد المحامى..

وعلى رأس القائمة النحاس باشا. مع انه لولاه لما دخل جمال ومعظم رفاقه الكلية الحربية من أساسه. وتفسير ذلك:

أنه بعد انهيار الدولة الفرعونية، ظل المصريون محرومين من حمل السلاح. وعلى مدى مئات السنين منذ الاحتلال الفارسى واليونانى والرومانى والعربى والفاطمى والكردى (الأيوبى) والمملوكى والعثمانى.. الى أن أنشأ محمد على أول جيش مصرى من الفلاحين سنة ١٨٢٠ وجميع الضباط من الأتراك والجركس..

هذا الجيش تدخل فى السياسة مرتين:

الأولى: عندما سمح سعيد باشا بن محمد على بترقية أبناء الفلاحين الى رتب الضباط. فكان منهم عرابى ثم ثورته.

الثانيـة: قبل الحـرب العالميـة الثانيـة، عندما أصـدرت حكـومة النحاس قرارا بقبـول أبناء الطبقات الشعبيـة بالكلية الحربية، كان منهم ناصر ومعظم رفاقه!

الثالثـة: نرجو ألا تحدث إطلاقا، وأن يتم التـغيير دائما سـلميا بالديمقـراطية وبالتعدد الحـزبى، ونحن لسنا أقل من ايطاليا أو الهند!..

ثالثا: الشمول:

فى نفس عام ١٩٥٤ أكلت الثورة أبناءها. عزلوا يوسف صديق الذى كان السبب الأول فى نجاح الحركـة، ثم ركنوا محمد نجيب وحددوا اقامتـه فى بيته مهانا يعانى نكران الجـميل حتى مات. واستـبعدوا آخرين بسـبب خفة دمهم، إذ طالبـوا بالرجوع الى الثكنات وعـودة الحيـاة المدنية. كـان منهم خـالد محيى الدين الذى رحلوه الى سويسرا!..

انتهى الاندفاع الى الشمولية بالخطوات التالية:

١ــ منع المظاهرات كـتـعـبير ديمـقـراطى سلمى عن الرأى، وكانت الحركة الطلابية تمارس هذا الحق منذ ثورة ١٩١٩..

٢ــ إصدار قـانون سبتمبر ١٩٥٢ يعطى ضـباط الحـركة حق طرد الموظفين دون محاكمة!..

٣ــ اعتبار جميع قراراتهم سيادية لا تخضع للمساءلة!

٤ــ حل الأحزاب السياسية!..

٥ــ حل مجلس نقابة المحامين المنتخب، ومجلس نقابة الصحفيين المنتخب!..

٦ــ وضعوا فى دستور يناير ١٩٥٦ البند العاشر الذى ينص على أن: يؤلف المواطنون "الاتحاد القومى" الذى يتولى الترشيح لمجلس الأمة (البرلمان) وتعرفون ان هذا الاسم تغير الى: الاتحاد الاشتراكى ثم حزب الوسط ثم حزب مصر، وأخيرا الحزب الوطنى الديمقراطى!!..

٧ــ تأميم الصحف واحتكار الاذاعة ثم التليفزيون!..

وبتأميم الإعلام وتأميم العمل السياسى، وقع المصريون فى الأسر، وبدأ النظام الشمولى مثل وابور ظلط فالت. وذابت شخصية الانسان المصرى، وقامت الدولة بالتفكير له، وعليه أن يكون ممتنا وسعيدا. فقد مضى عهد الاستقلال والتفكير المستقل!

وفشت ظاهرة كتابة التقارير السرية، والتدخل فى أرزاق الخلق.. وعن طريق هذه التقارير الأمنية السرية تبوأ الانتهازيون وماسحو الجوخ أهم المناصب. وأصبحت عبارة "شخص له رأى" تعنى أنه ضد الثورة!..

وضعفت المبادرة الفردية، وهى التى تحفظ للأمم رقيها. أما

الموهوب الذى لم يستسلم فلم يكن أمامه إلا الانتحار أو الهجرة أو الجنون أو الموت كمدا. وجميعها كما ترون اختيارات ديمقراطية!..

وكان شخصية فذة:

كان عبدالناصر مؤمنا بكل مافعله. كان مستبدا لصالح الأغلبية الكادحة، أحبهم وأحبوه، وأفنى عمره يعمل من أجلهم. طبقا لمعاييره.. وهو ليس هتلر الذى استبد بألمانيا وأخذ بمذهب الاشتراكية الوطنية كى يغزو العالم على زعم تفوق جنسه الآرى!..

وهو بالقطع ليس مثل معظم حكام العالم الثالث. عاش ومات فقيرا. بحثت المخابرات الأمريكية عن حساب له فى بنوك سويسرا ولم تجد. كانت سعادته العظمى فى ارضاء الغالبية. ولعله أراد أن يكون الدكتاتور العادل رغم تناقض كلمتى دكتاتور وعادل!..

إختار نظام "الاشتراكية الوطنية" ومعناها سيطرة الدولة على جميع وسائل الانتاج. فيصبح المواطنون موظفين بها!.. بنى آلاف المساكن الشعبية، وكفل حق تعيين الخريجين، فزادت البطالة المقنعة بالتزايد المستمر لأعداد الموظفين، يتقاضون مرتباتهم دون مجهود يذكر، حتى صاروا عبئا على العمل وعائقا لحسن الإدارة. وكان الناس من الأصل يشتكون من

البيروقراطية وعبارة "فوت علينا بكرة".. وأدى الاصرار على توظيف الجميع الى تعيين معظمهم فى مراكز بعيدة تماما عن تخصصاتهم. وفى ذلك إضاعة للوقت والمال الذى بذلوه فى تحصيل هذه التخصصات، وإهانة لهم!..

هؤلاء الموظفون الزائدون جدا عن الحد، وجدوا دون تعب المسكن الرخيص والطعام المدعوم، فتزوجوا وتكاثروا حتى قفز تعداد مصر من ١٤ مليون سنة ١٩٥٢ الى الثلاثة أضعاف وقت رحيل ناصر!.. وليتهم كانوا منتجين!!..

فصار دعم الغذاء والدواء والكساء كارثة على ميزانية الدولة، يلتهم فائض أى خطة. فعجزت الحكومة عن تطوير البنية الأساسية من طرق وتليفونات ومجار ومياه وكهرباء ومواصلات عامة، واكتظت القاهرة بتعداد سكان يعادل عدة دول مجاورة. وشلت حركة المرور وطفحت المجارى فى معظم الأحياء، وخربت التليفونات!!..

وعجزت الدولة عن تجديد آلات المصانع، فتمت عزلتنا عن مبتكرات العصر، وتأخرنا علميا وصناعيا، وأصاب الاحباط علماءنا الممتازين، تحت قمع رؤسائهم الدخلاء الجهلة الذين فرضتهم الحكومة عليهم، والذين سماهم محمد حسنين هيكل أهل الثقة، وكانوا أهل خراب!.. فقد تم استبعادهم عن

الجيش الى هذه المناصب المدنية خشية إنقلاب عسكرى جديد!!..

فإذا أضفنا أعباء الحروب التى دخلناها طوعا أو فرضت علينا، وصلنا الى فهم سر تزايد الديون الفاحشة، والكارثة الاقتصادية التى تركها لنا ناصر والسادات معا!!..

مشكلة ناصر هى البناء والهدم، بنى المصانع والعمارات ومصنع الحديد والصلب والسد العالى ومدينة البعوث الاسلامية والجامعات الاقليمية وأكاديمية الفنون، لكنه هدم كيان الانسان المصرى، والدليل على ذلك أنه بمجرد ان مات انهارت انجازاته وبسرعة وبلا مبالاة ودون مقاومة. وكان أول من بادر الى الهدم رفيق دربه ووريثه انور السادات (الله يرحمه).. وكان وزير الخزانة د. عبدالمنعم القيسونى هو واضع قوانين الاقتصاد الاشتراكى الناصرى، وهو نفسه الذى استعان به السادات من أجل تفكيك وحل هذه القوانين!..

والإنسان الذى يرفع رأسه ليتلفت حوله خوفا، لا يصلح للابداع، ولا لإدارة مصنع أو مدرسة، أو حتى بيته!..

أدى اختفاء الحرية والنقد الى عدم كشف الفساد والاهمال، وعدم كشفهما جعلهما سوسا ينخر فى اعمدة المجتمع. فكانت النتيجة الحتمية هزيمة ١٩٦٧ الموجعة. كنا نملك أسلحة تدك الشرق الأوسط، وجيشا كثيفا، نكبت قواته بقيادات صعد معظمها الى الرتب العالية لخفة ظلهم على

قلب المشير عامر رحمه الله، وبدلا من اللهث وراء كل جديد فى علوم الحرب وادارتها، لهثوا وراء إدارة النوادى وكباتن كرة القدم!..

تعبنا نحن تعبا شديدا، ومرض ناصر المرض الذى أدى به الى الموت. بعد ان أعاد بناء جيش جديد هو جيش النصر فيما بعد..

بدأ حياته السياسية فى حرب فلسطين، ومات وهو يدافع عن الفلسطينيين ضد مذابح بدو الملك حسين فيما عرف بسبتمبر ايلول الاسود!..

والذى لا شك فيه أنه كان محبا وفيا لشعبه، مخلصا لقوميته وعروبته، متعاطفا مع شعوب العالم الثالث، قطبا من أقطاب عدم الانحياز، استطاع فى سنوات قلائل بالدعم المباشر أو بسطوة شخصيته الفذة، تغيير شكل المنطقه العربية ومعظم أفريقيا وآسيا، زالت ممالك وقامت جمهوريات، وجلت فرنسا عن الجزائر، وصعد شعب اليمن الى سطح الحياة بعد أن ظل دهورا تحت حد التخلف، وعرفت دول افريقية مذاق الحرية للمرة الأولى، وفى مؤتمر القمة الافريقية بالقاهرة، وبعد رحيل عبدالناصر بربع قرن، أفاض الزعماء الأفارقة بشكر مصر وذكرى ناصر..

كان وطنيا مصريا.. منا ولنا.. وأيضا علينا..



◆ الفصل الثامن عشر ◆

والختام سلام .. حديث عن الأمل

من الفخر بالأقدميين..إلى التباهي بالقادمين

مثل محمد على أقام جمال عبدالناصر انشاءات ضخمة، وجعل الدولة تسيطر تماما على جميع أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والاعلام، فتحول المثقفون والمتعلمون الى موظفين، وتساوى الكسول مع النشيط، والغبى مع العبقرى!.. وتزايدت أعداد المنافقين والمتسلقين، حتى نخرت السلبيات فى كيان المجتمع، من غير أنوار كاشفة أو محذرة لغياب حرية النقد.. فكانت النتيجة كارثة الهزيمة العسكرية المهينة أمام إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧!!..

رحل ناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وكان منحازا بقوة الدولة الى الفقراء، على عكس خليفته أنور السادات الذى انحاز للأغنياء!.. وكان من رأيه ان مفتاح الشعب المصرى هو الدين، فأطلق على نفسه لقب الرئيس المؤمن!.. ولأن اللاعب بالدين فى السياسة مثل اللاعب بالنار لابد أن تحرقه، فقد اغتيل فى ٦ اكتوبر ١٩٨١ وهو بين جيشه وهيلمانه برصاص جماعات التطرف!.. وكان هو الذى أطلق لهم العنان من قبل ليتصدوا

لليساريين حسب ظنه!!..

وقد قامت طيور الظلام من أعضاء الجماعات الإرهابية بترويع المثقفين وتهديد أوراحهم، وهدفهم نسف حركة التنوير التى انجزها الشعب فى زمن قياسى، والنكوص بمصر الى عصور الظلام المملوكى العثمانى، وذلك فى عصر القوة فيه للعلم وليس للعضلات أو الطقوس الجوفاء!..

بعد السادات جاء حسنى مبارك، فاستهل رئاسته بتهدئة الأوضاع محليا وعربيا، وبالتصالح مع المثقفين، وعلاج الاقتصاد، وتشجيع القطاع الخاص، وإقامة المدن الصناعية، وتطوير وسائل الاتصال بأنواعها المختلفة، وزيادة الطاقة الكهربية عشرات المرات، وتعمير سيناء التى كانت مهملة، ثم الاهتمام بالصعيد الذى كان نسيا منسيا، ورعاية الطفل والمرأة، وتطوير التعليم، وإقامة المكتبات، ونشر الكتب المفيدة بأرخص الأسعار..

وكل ذلك بابداعات المصريين..

وجميع هذه الانجازات سوف تقوى وتتطور وتزدهر مع تعاظم ترسيخ الديمقراطية والحرية والعلم، بحيث تصبح مثل الغذاء والماء والهواء يستحيل العيش بدونها.

مصر الجديدة ديسمبر ١٩٩٨

رقم الإيداع: ٣٣٤٢/ ٩٩

هذا الكتاب

حكايات سياسية حول تاريخ مصر

منذ افتتاح قناة السويس وحتى اليوم

تدور عن السلاطين المساطيل، وهجوم

الأساطيل، وبعض الأعاجيب لأصحاب

الجلاليب.

وتشمل حكايات عن بعض ذئاب

الماضى وبدايات القروض.. والرشاوى..

ولمحات من خيانات الأعيان..

إلى أكتوبر العبور وبعض ما فعله

أبناء الصمت فى ست ساعات ..

والطريق إلى التنوير والشمولية..

وأخيراً حديث عن الأمل من الفخر

بالأقدمين. إلى التباهى بالقادمين.